ساعات مع المؤرخين

(١) عصر المرابطين والموحــدين فى المغرب والاندلس – القسم الأول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية .

تأليف محمد عبد الله عنان .

٥٦٦ صفحة من القطع الكبير .

مطبعة لجنة التألف والترجمة والنشر .

◎

(٢) الشرق والغرب من الحروب الصـليبية الى حرب السويس .

المرحلة الأولى فى الصراع بين الشرق والغرب .

بقلم محمد على الفتيت .

٢٩٠ صفحة من القطع الكبير والثمن ٣٠ قرشا

مطابع الدار القومية .

◎

(٣) الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس الجزء الأول فى عدوان الغرب –

بقلم محمد على الفتيت .

٤٣٦ صـفحة من القطع الكبير والثمن ٥٠ قرشا .

مطابع الدار القومية .

◎

(٤) الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس . الجزء الثانى فى عدوان الغرب

بقلم محمد على الفتيت .

٤٨٤ صـفحة من القطع الـكبير والثمن ٥٠ قرشا .

مطابع الدار القومية .

◎

من سمات العصر الحاضر العقليـة البادية العناية بالتاريخ ، فجمهرة القراء العادبين فضلا عن المثقفين ولعة بقراءة التراجم وسير العظماء بوجه خاص وتعرف الأحداث الجليلة التى أثرت فى تاريخ الانسانية بوجه عام ، ومن الملحوظ أن كثيرا من الكتاب البـارزين فى الشرق العربى الذين يمثلون النزعات الفكرية السائدة قد اقبلوا على كتابة التراجم ووضع المؤلفـات التاريخية متأثرين بروح العصر ، وهذه الظاهرة بادية فى الشرق والغرب ، وهناك من غير شـك أسباب عميقة لهـذه الظاهرة الملحوظة بعضها نفسى وبعضـــها اجتماعى وربما كان بعضـها كذلك اقتصـاديا ، والتخطيط الاقتصادى والسياسى والاجتماعى الذى تتبعـه أمم كثـيرة فى العصر الحاضر يقتضى معـرفة واسـعة بالحـركات التاريخيـــة وتطور الأحوال العالمية ، والشائع الذائع أن هذا العصر هو عصر العلم ولكن الواقع أنه كذلك عصر العقلية التاريخية ، وحاجتنا الى المعرفة التاريخية السليمة فى هذا العصر لا تقل أهميـــة بحال عن حاجتنا الى المعرفة العلمية الأصيلة .

والتاريخ يرينا كيف واجه القدماء مشكلاتهم وصارعوها وتغلبوا عليهـا أو كيف صرعتهم تلك المشـكلات واستعصت عليهم لأنهم لم يحـزموا

بقلم

رئيس التحرير

(٥) ثورات العرب فى سنة ١٩١٩ الجزء الأول .

بقلم محمد على الغتيت .

١٧٨ صفحة من القطع الكبير والثمن ٢٠ قرشا

مطابع الدار القومية .

◎

(٦) ثورات العرب فى سنة ١٩١٩ الجزء الثانى .

بقلم محمد على الغتيت .

٥٢٢ صفحة من القطع الكبير والثمن ٥٠ قرشا

مطابع الدار القومية .

◎

(٧) موسى بن نصير .

بقلم عبد العزيز حافظ دنيا .

١٩٢ صفحة من القطع الكبير والثمن ٣٠ قرشا .

مطابع الدار القومية .

◎

(٨) مع ارنولد توينبى .

ترجمة محمد عبد الله الشفقى .

٥٩ صفحة من القطع الكبير والثمن ١٥ قرشا

مطابع الدار القومية .

◎

أمرهم وأخفقوا فى مواجهتها ، ويمكن أن نستخلص من ذلك أن أول واجبات المؤرخ الحق هو الاحتفاظ بحرية الرأى ، وتحرى الصدق فى القول ، والتزام النزاهة التامة فى تقرير الحوادث ، وعرض المشكلات ، وتقدير أعمال الرجال ، فلا يفسر التاريخ تفسيرا حزبيا ، ولا يشوه الحوادث محاباة لفريق ينتمى اليه ، ويحبذ سياسته ، بل يدرس كل قضية بفهم وبصيرة ويعرضها للقارىء بغير تحيز ولا تعصب ، أى أن يكون مؤرخا بمعنى الكلمة .

وطريق المؤرخ حافل بالصعاب والمزالق ، فكشف الحقائق فى غمار الأحداث المتوالية ليس من الأمور الهينة ، ولذلك قد وجد من يتشككون فى امكان وصول المؤرخين الى كشف تلك الحقائق المطوية ، وهناك خطران شديدان كثيرا ما يعرضان للمؤرخ وهما :

أولا اتخاذ التاريخ وسيلة للدعاية ، وباعث ذلك فى أغلب الأوقات المزاج الكلبى الذى يشك فى وجود الحق ، والتاريخ عند أصحاب هذا المزاج يمكن أن نصنعه كما نشاء ، ونتخذه وسيلة لتسويغ أية خطة والدفاع عن أى مبدأ من المبادىء ، أو غاية من الغايات ، ويكون التاريخ فى هذه الحالة خاضعا للنزعات الحزبية والأهداف النفعية ، ولا بأس فيه من التشويه

المتعمد واخفاء بعض الحقائق والمبالغة في اظهار حقائق أخرى قليلة الأهمية وتأكيدها ،

.. والخطر الثانى تأثر المؤرخ بذاتيته ومزاجه الشخصى ، ولا نزاع فى أن الانسان مهما تحرى الموضوعية فى كتابة التاريخ . فانه متأثر بوجهة نظره الخاصة وتقاليد بيئته والجو الفكرى لعصره، ولكن هناك فرق بين من يكبح جماح نفسه ويعودها على تحرى الحقائق وبين من يلقى قياده لنزعاته وأهوائه ، وهناك من يظنون أن المؤرخ الذى يتحرى الموضوعية يكون مجرد كاتب حوليات ومسجل حوادث ، ولكن محاولة المؤرخ أن يقول الحق ويقرر الواقع فى ضوء البحث الحر النزيه والتسامى على التحزب والأهواء لها قيمتها ، وفى أمثال هذه الحالة يمكن استدراك ما فى وجهة نظره الخاصة من خطأ أو نقص .



والذين يقولون اننا نحن البشر لا يمكن أن نصل الى الحق المطلق يقفون من التاريخ موقفا انهزاميا غير جدير بالانسان ، وقد حاول المؤرخون المتازون أن يتحروا الحق ، وبذلوا فى ذلك جهدهم ، ووفق بعضهم الى حد لا بأس به ، والعجز فى الوصول الى الكمال لا يبرر اليأس من المحاولة ، وكبار المؤرخين لم يسلموا كل السلامة من آثار الميول والنزعات ولكنهم مع ذلك قد أخلصوا فى عملهم ووضعوا أسسا يمكن أن نبنى فوقها ، ونظلمهم اذا رميناهم جميعا بالتعصب والتحيز والخضوع للأهواء ووضعناهم فى صفوف الكتاب الذين زيفوا التاريخ وتعمدوا تشويه الحقائق أو الكتاب الذين يبنون على أسس ضعيفة من الحقائق أبنية شاهقة ضخمة ويحملون الحوادث تفسيرات عجيبة أكثر مما تحتمل لمناصرة هدف من الأهداف أو تبرير موقف من المواقف .

والمؤرخ الحق يحب الماضى لذاته أولا ثم يحاول ثانيا أن يفيد منه الحاضر ويلقى عليه ضوءا ، واذا لم يكن عندنا ميل الى معرفة الماضى لذاته أصبحنا لا نرى فى الماضى الا ما نريده فى الحاضر .

ولا نزاع فى أن المؤرخ يحتاج الى صفات كثيرة ومواهب مختلفة منها القدرة على استخلاص المسائل الجوهرية من بين التفاصيل الدقيقة الكثيرة وصحة الحكم على الأشياء والفهم العاطف للأخلاق .

والكتب التاريخية الموضحة فى مطلع هذا المقال تؤكد ذيوع النزعة التاريخية التى أشرت اليها .

وأولها وهو كتاب « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » للأستاذ عبد الله عنان من الدراسات الهامة التى ظهرت فى هذه السنة ، وقد توفر الأستاذ عبد الله عنان على دراسة تاريخ العرب فى الأندلس منذ سنوات طويلة حتى أصبح حجة قليل النظير فى معرفة دقائقه وتحرى أخباره ، وهذا الكتاب الأخير عن عصر المرابطين والموحدين هو العصر الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الأندلس ويشمل القسم الأول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ونرجو للأستاذ التوفيق فى مواصلة جهوده المثمرة حتى يخرج القسم الثانى ويستكمل بذلك تاريخ هاتين الدولتين الهامتين فى تاريخ المغرب وتاريخ الأندلس الاسلامية على السواء .

ويحدثنا الأستاذ عنان فى مقدمة كتابه عن الباعث له على تأليفه بقوله « كانت الثغرة التى بقيت بين نهاية عهد الطوائف وقيام مملكة غرناطة وهى عصر المرابطين والموحدين ، وهى ثغرة تستغرق من الزمن نحو مائة وخمسين عاما — كانت دائما تروعنى بطول مداها ، وتشعب آفاقها ، وخصوصا بالمغرب ، ولكن كان لابد لاتمام المهمة التى كرست لها بقية حياتى ، وهى تسطير تاريخ الأندلس منذ الفتح الى النهاية ، أن أقتحم هذا الميدان الوعر ، وان أعكف على كتابة تاريخ هذا العصر بالرغم من كل ما يكتنفه من صعاب وغموض حتى تجبر الثغرة ، وتتصل المراحل ، ويغدو

تاريخ الأندلس والأمـــة الأندلسـيــة كله وقد استكملت حلقاته ، منذ بدايته الى نهايته » .

ولم يدخر الأستاذ عنان جهدا فى القيام بهذا العمل الشاق ، فنقب تنقيبا مستمرا فى مكاتب مدريد والاسكوريال والرباط وفاس والقاهرة ولندن واكسفورد والفاتيكان ، وتقصى المصادر والوثائق ، وزار عواصم المغرب ومنطقة جبال الأطلس ومدينــة تينملل مقر المهدى بن تومرت وتابع طريق مسير الجيوش المرابطية والموحدية الى شبه الجزيرة الاسبانية وزار مواقع العبور اليها من جانبى المضيق ، كما أنه لم يترك قاعدة او مدينة اندلسية قديمـــة الا زارها ودرس معالمهـــا وآثارها ، وعنى بوجه خاص بدراسة مواقع المعارك التاريخية العظيمة التى دارت بين المرابطين والموحدين وبين اسبانيا النصرانية سواء فى شنترين وشلب أو فى الأرك والعقاب كما زار القلاع المشهورة واعتلى آكامها وتجول فى هضابها ليكون وصفه لها أقرب ما يكون الى الحقيقة .

ولما كان الأســـتاذ عنان قد سبق أن عرض لتاريخ نشأة دولة المرابطين فى كتابه « دول الطوائف » وهو الجزء الثانى من كتاب « دولة الاســـلام فى الأندلس » وقيامها على يد عاهلها الغازى المظفر يوسف بن تاشفين لذلك بدأ كتابه هذا بالتحـــدث عن خاتمة عهد يوسف وظهور المهدى محمـــد بن تومرت والصراع بين المرابطين والموحدين وقيام دولة الموحدين ونهاية الدولة المرابطية فى المغرب وسعى الموحدين فى توطيد دولتهم والقضاء على أعدائهم .

وتبرز من خلال هـــذه الحوادث المتلاحقة الملأى بالتقلبات الكثيرة واقبال الحظ وادباره والحافلة بالرجال ذوى المواهب المتنوعة أقــول تبرز ثلاث شخصيات تلفت النظر ، وهى شخصية يوسف بن تاشفين ، وشخصية المهدى بن تومرت وشخصية عبد المؤمن بن على ، وقد وضع المهدى الأساس الروحى لدولة الموحـــدين كما وضع عبد المؤمن أساس كيانها السياسى .

ويوازن الأستاذ عنان بين دولة المرابطين ودولة الموحدين فيقول « نشأت كلتا الدولتين ، المرابطية والموحدية ، فى ظروف متشابهة ، كأنما رسمت لكل منهما على نسق واحد ، فكلتاهما قامت على اسس دينية ، وعلى يد فقيه وداعية متعصب ، فكان داعيـــة الدولة المرابطية الفقيه عبد الله ابن ياسين ، وكان داعية الدولة الموحدية المهدى محمد بن تومرت ، وتحولت كلتاهما الى ملك سياسى على يد زعيم موهوب وقائد بارع ، فكان زعيم الدولة المرابطية الذى وطد دعائمها ، وشاد ملكها السياسى ، يوسف بن تاشفين ، وكان قرينه عبد المؤمن بن على هو الذى وضع أسس الدولة الموحدية ، ووطد دعائمها ، واستطاعت الدولة الموحـــدية بعد أن قضت على الدولة المرابطية أن تسيطر على نفس الرقعة الاقليمية الشاسعة التى كانت تحتلها سواء فى المغرب أو الأندلس » .



ويصف الأســـتاذ عنان شـــخصية يوسف ابن تاشفين بقوله « أن شخصية البطل المرابطى العظيم تنطوى على كثير من الصفات اللامعة التى جعلت من حياته المديدة الحافلة نموذجا مثاليـــا لهذا النوع من البطولة الساذجة الرائعة معا ، والواقع أن أروع ما فى صفاته تلك الهالة الوضاءة من البساطة المؤثرة التى لبثت شعار حياته كلها ، والتى لم تتأثر بتطورات الأحداث السياسية التى خاضها ، والفتوح العظيمة التى حققها ، والتى جعلت من الدولة المرابطية الكبرى فى ظله أعظم دولة قامت فى الغرب الاسلامى من حيث المدى الاقليمى ومن حيث القوى والمـــوارد الزاخـــرة ، اذ كانت تمتد من تونس شرقا الى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن ضفاف نهرى الايبرو والتاجة فى شبه الجزيرة الاســـبانية شمالا الى قلب الصحراء الكبرى جنوبا ، فقد لبث البطل المرابطى عاهل هذه الدولة الشـــامخة على حالته الأولى مذ كان

زعيما محليـا من زعماء الصحراء بدويا متقشفا يرتدى الصوف الخشن ولا يلبس غيره أبدا ، ولم يتأثر طول حيـاته بأية نزعة من ترف القصـور ولا عيشها الناعم ولا مغرياتها الفاسدة » ويصفه الأستاذ عنان الى جانب ذلك « بالذكاء والفطنة والعزم والشجاعة والحزم والكرم والجود والتقى والورع » .

ويوسف بن تاشفين خليق بهذه الصفات التى أسبغها عليه بحق الأستاذ عنان وان كانت الطريقة التى اتبعها فى معاملة المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف بالأندلس تدل على الغلظة والفظاظة ونقص الأريحية ، كما أن معاملاته لابن عمه الأمير أبى بكر بن عمر لم تكن تنطوى على تلك البساطة التى يعزوها اليه الأستاذ عنان ، وأحسبها تدل على أنه كان نهـازا للفرص شأن الوصوليين من ذوى المطامع والطموح .

ويقول الأسـتاذ عنان عن المهدى بن تومرت « كان من أعظم الدعاة الدينيـين وأغزرهم علما وأشدهم دهاء وأقواهم نفسا وأشدهم تأثيرا فى النفوس ، وكان الى جانب ذكائه يتمتع بمنطق قوى ومحاجة قاطعـة وذلاقة مؤثرة ، يستميل الجموع برائع بيانه ووعظه ، وكان متمكنا من علوم القرآن والسـنة ومن الأصـوليين ، أصول الفقه وأصول الدين ، شـديد التقشف والزهـد والورع .. ولا يقبل على شىء من متاع الدنيا .. ولم يتحول عن ذلك حينما سما شـأنه وأقبلت عليه الدنيا » .



والذى يتتبع سيرة هذا الرجل وأخباره ويرى انتحاله لصفة الامام المعصوم وشدة تعصبه وميله العجيب الى سـفك الدماء وازهاق الأرواح واستحلاله سبى النساء والأطفال ونهب الأموال يدرك أن وراء مظهر هـذا الزاهد المتقشف كان يتوارى دجال من أغرب الدجاجلة الذين عرفهم التاريخ يتخذ الدعوة لفضائل والغيرة على الدين وسيلة لبسط سلطانه وتحقيق نفوذه وسيطرته ويحاول أن يضفى على قسوته المتناهيـة الصفة الشرعية ، وقد شك فى هذه العصمة التى ادعاها خلفاء صفيه عبد المؤمن بن على بعد أن توطدت الدولة الموحدية وثبتت أركانها .

ويصف الأستاذ عنان عبد المؤمن بن على بقوله « كان الخليفـة عبد المؤمن عبقرية فذة تنطوى على طائفة من أبدع الخلال التى تصاغ منها العظمة والبطولة ، وقد شادت هذه العبقرية دولة من أعظم الدول الاسلامية ... وشادتها فى ظروف صعبة وفى غمر الكفاح المضنى ومن امارات وقبائل بربرية متنـابذة مفترقة الكلمة لم تعرف خلال حياتها الطويلة معنى للنظام والاتحاد .. فصاغ عبد المؤمن بعزمه وقوة نفسه وبراعته العسكرية والسياسية من هذه العناصر المضطربة الخصيمة كتلة متناسقة متعاونة متحدة ، وأنشأ منها الدولة الموحدية الكبرى ، أعظم الدول المغربية اطلاقا » .

وكان عبـد المؤمن من غير شـك قائدا موفقا وسياسيا مطبوعا ومن أقوى الشخصيات التى عرفها تاريخ المغرب .

وكتاب الأستاذ عنان فى مجموعه يقدم لقارئه صورة ناصـعة لدولة المرابطين فى أوج سلطانها ونشأة الدولة الموحدية كما يصف الممالك الاسبانية النصرانية فى خلال العصر المرابطى وأوائل العصر الموحدى ، ويقدم وثائق مرابطيـة وموحـدية لها قيمتها التاريخية ، ويمتاز أسلوب الكتاب بسلاسة عبارته وحسن تصويره للشخصيات والأحداث مع التحقيق والتمحيص وهـو جـدير بالشكر والتقدير من قراء اللغة العربية والمعنيين بتاريخ الدول الاسلامية عامة والمغرب والأندلس بوجه خاص .

وقد حاول الأسـتاذ محمـد على الغتيت فى كتبـه الخمسـة أن يتتبع الصراع بين الشرق والغرب من الحـروب الصليبية الى حـرب السويس ، والجزء الرابع والخامس يشـملان ثورات العرب فى سنة ١٩١٩ .

وبقول الأستاذ الفتيت فى مقدمة الجزء الأول الذى قصره على المرحلة الأولى من مراحل صراع الشرق والغرب « قد حرصنا على أن نبرز فى هذه المرحلة ما ثبت لنا من أهداف الغرب التى ظل يعمل على تحقيقها فكتل قواه وركز جهوده من اجلها منذ الحروب الصليبية ، وكان فى طليعة هذه الأهدافالقضاء على البعث العربى والحيلولة دون بعث القوميةالعربية فى أية صورة منصورها باعتبار أن ذلك ، فى رأىالغرب ، بالاضافة الى أنه يشكل فى ذاته خطرا جسيما على سياسته ، فانه متى تحقق كان المقدمة التى تجر وراءها حتما وتلقائيا البعث الاسلامى ، فان بعث القومية العربية فى نظر ساسة الغرب هو الطاقة القوية التى متى انبعثت كان من المحتم أن تدفع المسلمين أمامها الى التجمع من جديد على الصورة القوية التى لا يمكن أن تتحقق الا فى ظل القومية العربية دون سواها من مختلف الحركات الاسلامية ، ولم يحد الغرب عن هذه العقيدة ـ منذ الحروب الصليبية حتى الآن ، بل أنه لم يجد فارقا بين القومية العربية وبين التجمع الاسلامى أو بين العروبة والاسلام .. والغرب يتهيب دائما خطر التجمع الاسلامى ويراه كامنا فى العروبة حيثما كانت لا فى الاسلام حيثما كان ، فقوة القومية فى البلاد الاسلامية غير العربية لا يرى فيها الغرب الا مجرد حركة قومية فحسب لا تتصل اطلاقا بالتجمع الاسلامى الذى يخيفه ، والحركات التى يقوم بها المسلمون غير العرب لا تعدو أن تكون فى رأى الغرب حركات سياسية ، فى حين أن مثل هذه الحركات فى البلاد العربية حيثما كانت حركات منطوية على البعث القومى والدينى الذى عرفه الغربيون بالتعصب الاسلامى ، وحرصوا على ترديد هذا التعبير كلما واجه الغرب هذه الحركات فى الشرق العربى » .

وبرى الأستاذ الفتيت أن سياسة الغرب نحو الشرق قد تطورت بطبيعة الحال تبعا لتغير الظروف عبر التاريخ ، ولكن تطوير هذه السياسة لم يصرف الغرب قط عن أهدافه الاساسية خلال الف سنة من التاريخ ، كما أن الخلافات التى وقعت بين الدول الغربية لم يفرق كلمتها بالنسبة لأغراضها الاستعمارية .

وعند الأستاذ الفتيت أن السياسة التى يسير عليها الغرب هى خلاصة ما حصل عليه من مختلف التعاليم والتجارب فى الحروب الصليبية وما بعد هذه الحروب حتى عصرنا الحاضر .

وقد تحدث الأستاذ فى الجزء الخاص بالمرحلة الأولى عن الحملات الصليبية وتسلل الغرب الى الشرق بدعوى حماية الأقليات ونظر الغرب الى مسيحيى الشرق ، وانتقل بعد ذلك الى المسألة الشرقية ومن رأيه أنها ظهرت بمولد النبى محمد وظهور دعوته الى دين جديد ، ويؤيد هذا الرأى بأقوال بعض المؤرخين الغربيين ، ويتحدث عن القضية العربية وغزوات الغرب لمصر والمسألة المصرية والحملة الفرنسية والغزو البريطانى الأول لمصر وعهد محمد على وموقفه من حركة البعث العربى والاسلامى والغرب ومصر .

وفى الجزء الأول من كتابه عن عدوان الغرب حاول الأستاذ الفتيت أن يجمع الوثائق التى كتبها مؤرخو الغرب أنفسهم وسطرها ساستهم وأولو الأمر منهم « لترتسم الصورة الصحيحة المتكاملة لعلاقة الغرب بالشرق » على حد تعبيره .

ويقول الأستاذ الفتيت فى هذا الصدد « ما من شك فى ان محاولة الكشف عن الوثائق الرسمية لسياسة الغرب عمل كان له رواد من مؤرخى الشرق من الغرب ، غير أن محاولاتهم المشكورة لم تكن هدفا فى ذاته وانما كانت للاستشهاد أو لدعم بعض ما يحتاج المؤرخ لدعمه من وقائع التاريخ ..



ولكننى أخذت على نفسى جمع تلك الوثائق فكانت هى الهدف » وقد استهل هذا الجزء بفصل عن الاستعمار الغربى واتبعه بفصول عن قناة

السويس وموقف دى لسبس وسياسة الخديو اسماعيل المالية والخديو توفيق والثورة العرابية واحتلال الانجليز لمصر .

وفى مقدمة الجزء الثانى يقول الأستاذ الغتيت « اصبح لزاما على كل من يتصدى لقضايا العرب أن تكون عـدته لذلك تثبيت وعيهم القـومى الجديد ، وتبصيرهم بموقف الغرب منهم والكشف عن أهداف سياسته ومراميها ووسائلها ، كشفا علميـا لا يسـتهدف الدعاية أو الاثارة وانما يستهدف الحقيقـة ، ويقوم على أساس وقائع التاريخ الثابتة وما يعززها من الوثائق والادلة » .

ويشمل هذا الجزء المرحلة الثالثة من مراحل الصراع بين الغرب والشرق وهى تبدأ من نهاية الحرب العالمية الأولى الى حرب السويس ، وفى هذا الجزء فصول عن غزو الحبشة وغزو تونس وليبيا وتآمر الحلفاء على قضايا العرب والصهيونية وفلسطين وقضية سوريا ولبنان وتنافس الدول الغربيـة على بترول الموصل ، وفى كل فصل من هذه الفصول يقـدم الأستاذ الغتيت للقـارىء معلومات قيمة مؤيدة بالأسانيد الوثيقة والحجج الدامغة .

وفى مقـدمة الجزء الأول من كتابه « ثورات العرب » يقول عن الأمـة العربية « فى التاريخ شواهد لا يرقى اليهـا الشك تؤكد أن الأمة العربية قد أمدت العالم بأقوى أسس الحضارة الانسانية فى شتى ميـادين العلوم والفنون والآداب ، وضربت فى الخلق الرفيع ومبادىء العدالة أروع الأمثال ، فكانت فى ذلك كله المنارة التى شع منها نور العلم والمعرفة وقت ان كانت شعوب الغرب تتخبط فى دياجير الظلام » .

وتتناول فصول هذا الجزء مؤتمر الصلح والثورة الروسـية والثورة الألمانية والولايات المتحدة والحرب العالمية الأولى والثورة التركية والثورة العربية وقد خصص الجزء الثانى للثورة المصرية وظهور الوفد المصرى بوصـفه وكيلا عن الأمة ومواجهـة سـعد زغلول للانجليز ونفيه وتصريح ٢٨ فبراير ومفاوضـة سعد لماكدونالد وسعد والتبليغ البريطانى .

وهـــذه الأجزاء الخمسة حافلة بالمعلومات ، ولم يكن الأستاذ الغتيت مبالغا حين قال فى مقدمة أحد هذه الكتب « هذا المؤلف هو ثمار لأكثر من غرس ، ثمار لدراســات عكفت عليها عشرات السنين ، ثمار لتأملات فى أحداث التاريخ منذ أن كان للعالم تاريخ معروف » والمعلومات التى جمعها الأستاذ الغتيت فى مدى السنوات الطويلة على دسامتها وأهميتها كانت فى حاجة ماسة الى تنسيق أوفى لا يجعل القارىء يضل الطريق فى تيهها ، ويبدو لى أن الأستاذ الغتيت فى فورة حماسته خلال جمع هـذه المادة الوافرة لم يجد الوقت الكافى لتنسيقها وتبويبهـا تبويبا فنيا يجعلها متماسكة الأجزاء حسنة التسلسل ، وربما كان من أسباب ذلك انه لم يكن له ســابق عهد بممارسة التاليف ، والواقع أن القدرة على جمع المعلومات الممحصة المدعومة بالوثائق غير القدرة على التاليف الفنى الذى يحتاج الى مران وتدريب ونفحة من الفن ، وقد أجاد الأسـتاذ وأفاد فى الجمع والتحقيق ولكنه لم يبلغ ما كان يريده له القراء من اجادة التبويب والتنسيق ، وكتبه مع ذلك جديرة بالذيوع ، وأن يطلع عليها القراء فى الشرق العربى ، وبخاصة فى المرحلة الراهنة من مراحل التطور والانتقال .

وقد رأى الأستاذ عبد العزيز حافظ دنيا أن يزود المكتبة العربية بكتاب عن حيـاة موسى ابن نصير وعصره ، وقد أحسن بذلك صنعا ، فموسى بن نصير من رجالات الاسـلام الجديرين بان تعرف سيرتهم وينشر مطوى أخبارهم ، وهو من غير شك صاحب الفضل فى الاقدام على فتح الأندلس وتوطيـد مكانة الاسلام فى المغرب ، وقد تتبع الأستاذ دنيا أخبار موسى منذ نشأته وعلاقتـه بالأسرة المروانية وولائه لعبد العزيز ابن مروان أخى الخليفة عبد الملك واختياره واليا للمغرب وفتحـه للأندلس وكيف نكبـه الخليفة سليمان بن عبد الملك واهدر كرامته ولم يرع له مكانته وسـابق حرمته وحسن بلائه فى الدفاع عن الاسلام وتوطيد أركانه .

والكتاب يقدم صورة واضحة لموسى بن نصير مع وصف ملابسات عصره والأحداث التاريخية

التى مهدت له السبيل ويسرت له القيام برسالته وقد لاحظت أن الأستاذ دنيا يخطىء من الحين الى الحين فى مسألة أنساب القبائل العربية ، ففى صفحة ٢٦ يقول « فجيش الضحاك يضم قبائل قيس اليمنية بفروعها المختلفة وجيش مروان يضم قبائل كلب » والصحيح أن يعكس الأستاذ دنيا ما ذكره فقبائل قيس ليست يمنية وانما هى عدنانية نزارية وقبائل كلب يمنية قحطانية ، ووقعة مرج راهط كانت انتصارا لليمنية على القيسية كما هو معروف ، وقد وقع الأستاذ فى مثل هذا الخطأ فى كلمة الختام فقال ان موسى ابن نصير ينتسب الى قبيلة ربيعة العدنانية ، والصحيح أن موسى ينتسب الى لخم والخلاف كما ذكر ابن سعد فى نفح الطيب هل هو لخمى صريح او بالولاء ولخم تنتسب الى اليمن أو القحطانية ، ويقول الأستاذ « أن مؤسس قبيلة ربيعة هو ربيعة بن نصير اللخمى أحد ملوك اليمن والجد الأكبر للنعمان بن المنذر ملك الحيرة بالعراق ، وفى هذا الكلام الكثير من الخطأ والخلط ، فربيعة بن نصير غير ربيعة بن نزار ابن معد بن عدنان الذى تناسلت من نسله قبائل ربيعة ، وربيعة بن نصر لا نصير كما ذكر الأستاذ دنيا هو جد عمرو بن عدى أول ملوك الحيرة من آل نصر وهم لخميون أى من القبائل اليمنية القحطانية ، ولم يكن ربيعة بن نصر « أحد ملوك اليمن » كما قرر الأستاذ دنيا ولعله يعمل على تصحيح هذا الخلط فى الطبعات القادمة .

ولم يأخذ المؤرخون على موسى كثرة الدماء التى أهدرها فى استكمال فتح المغرب فحسب بل أخذوا عليه شيئا كان من أقوى أسباب نكبته ، وهو شدة جشعه ، فقد اتهم بسرقة المال فى وقت توليته خراج البصرة واصدر الخليفة أمره بالقبض عليه وعلم موسى بذلك فلاذ بمولاه عبد العزيز بن مروان الذى فياه ظل رعايته ، وحقيقة أن اختلاس الأموال كان من عيوب بعض الولاة فى ذلك العصر ولكن موسى بن نصير كان على ما يظهر مبرزا سباقا فى هذه الناحية ، وكان هذا الضعف الذى ابتلى به هذا الرجل القدير من أسباب نقمة عبد الملك عليه واستدعاء الوليد بن عبد الملك له ، كما أن فى معاملته لطارق ابن زياد حسب رواية الحميدى وابن حيان وغيرهما من المؤرخين ما يؤخذ عليه ، ويدل على طبيعة الحسد الغالبة عليه ، ومهما يكن من الأمر فان موسى كان خليقا بمعاملة أكرم من المعاملة القاسية التى عومل بها من هذا الرجل المفتون سليمان بن عبد الملك .

وكتاب « مع أرنولد توينبى » للأستاذ الشفقى استهله بفصل عن حياة المؤرخ الكبير ، ونقل فى فصل آخر الحديث الذى دار بين توينبى وكريستوفر رايت الزميل بجامعة هارفارد كما ترجم الفصل الذى كتبه توينبى نفسه فى الملحق الأدبى لصحيفة التايمز عن « حدود التحكم » وفصل لقاءات بين المدنيات وهو أحد فصول كتابه « المدنية تواجه الامتحان » .

والكتاب فى مجموعه يقدم لقارئه فكرة موجزة صحيحة عن راى توينبى فى التاريخ ونظريته فى الحضارات .

◎ ◎ ◎

العقد الاجتماعي

تأليف

لوك
هيوم
روسو

ترجمة عبد الكريم أحمد ، مراجعة توفيق اسكندر

أتناش دار سعد مصر ، بالاشتراك مع مشروع الألف كتاب
عدد الصفحات ٤٠٨ مقاس ١٧×٢٤ سم
الثمن ٢٥ قرشا



روسو



لوك

ما من فكرة سادت عصرا من العصور كما سادت فكرة العقد الاجتماعي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، رغم امتدادها التاريخي الى جمهورية أفلاطون وفلاسفة الأغريق فقد كانوا أول ـ كما يرى مفكرو الغرب ـ من أخرجها من حيز الأفكار الى حيز النظريات والمبادىء السياسية المدرسية ، وان كنا نرى أن فكرة العقد تبدو واضحة فى قوانين حمورابى وحكم أمحوتب والوصايا العشر وتعاليم كونفوشيوس حين يقول عن الحكومة الصالحة أنها تكون « حيث يكون الامير أميرا والوزير وزيرا والأب أبا والابن ابنا » ، بل أننا لنرى مذهب روسو بينا فى الكتاب الصينى القديم « الطريقة والفضيلة » أو « الدو ـ ده ـ جنج » الذى عرف قبل كونفوشيوس بزمن بعيد ،



هيوم

والذى رسم حدود المدينة الفاضلة قبل أن يراها أفلاطون أو يتبينها روسو فى العودة الى الطبيعة .

وأيا كانت فكرة العقد من القدم أو الحداثة فقد غدت وحى المثل السياسية للديمقراطية والدولة القومية فى العصر الحديث ، بل انها لتعد ايضا ملهما فذا لفكرة الجماعية والاشتراكية الحديثة كما كانت سندا للبابوية والامبراطورية والاقطاع فى العصور الوسطى ، كما يرى سير أرنست باركر الذى كتب المقدمة الرائعة لهذا السفر الذى نحن بصدده ، بل أنه ليرى أكثر من ذلك أن نظرية روسو فى العقد الاجتماعى سند قوى لليسارية المتطرفة كما هى سند قوى لليمينية الحادة ولن تجد فيها اتجاه الوسط المعتدل كما يعتقد الناس خطأ عن روسو . وهو الاتجاه الذى قامت عليه الديمقراطية البريطانية التى نمت على يد « الهويج » أو الأحرار الانجليز

وقد اتخذ العقد ــ سواء كان عقدا للحكم او عقدا للمجتمع ــ صوراً واتجاهات عديدة على يد الفلاسفة السياسيين ، اختار من بينها سير أرنست باركر أجزاء هذا الكتاب بحيث تمثل كما نعتقد الاتجاهات البينة للعقد بنوعيه كما تمثل الأصل التاريخى أو الطبيعى لفكرة العقد وقدم لها تلك المقدمة الرائعة التى تبين التطور التاريخى لفكرة العقد ، والعقد الاجتماعى بالذات ، كما تدفع تلك الاتجاهات للفلاسفة الذين اختار لهم وهم بترتيب وضعهم فى الكتاب ــ دافيد هيوم ، وجان جاك روسو ، وجون لوك ــ تدفعهم بعضهم ببعض ليخرج من تلك الدراسة المقارنة بالاتجاهات المتباينة لهؤلاء الفلاسفة عن العقد الاجتماعى وليبرز للقارىء فى صورة نقدية بليغة ــ تجىء ضمنا ولا يسفر الكاتب عنها اطلاقا ــ معقد السيادة على أن يطوع آراء العقد الاجتماعى وفقا لأغراضه ومراميه ، فقد أصبح العقد الاجتماعى لروسو انجيل الثورة الفرنسية وغدا كما يقول باركر أنشودة مديح فى الفردية (المقدمة ص ٣٥) ، والواقع كما يقول باركر (ص ٣٦) « أن أثر تعاليم روسو فى الثورة الفرنسية كان أقل بكثير مما اعتقده الناس » ، والواقع أيضا أن فلسفته كانت أقل تجانسا بكثير مع فرنسا فى سنة ١٧٨٩ ، وأكثر تجانسا مع ألمانيا بعد ذلك بعشرين أو ثلاثين سنة (ألمانيا فيشته وهيجل) ، مما اعتقد مفسروها الفرديون ، والحقيقة أن فلسفة « العقد الاجتماعى » « فلسفة معبر » فهى تحدد مرحلة الانتقال من « القانون الطبيعى » الى تقديس الدولة القومية ، انها قد تبدأ مع « لوك » ولكنها تنتهى بالعودة الى تقديس الدولة كما جاءت فى « جمهورية أفلاطون » (وهذه هى العودة الحقيقية لروسو ، وليست العودة الطبيعية) ، « وهو اذ يعود الى أفلاطون يتوغل فى المستقبل وتصير فلسفته مقدمة لمذهب هيجل » .

وسنرى فى استعراضنا للكتب الثلاثة كيف تتفاوت الآراء بين روسو ولوك ، بل كيف تعبر على أشلاء فكرة تقليدية محافظة لدى هيوم وان اهتمت بابراز الاطار التاريخى لفكرة العقد أكثر مما اهتمت بوضع نظرية بعينها .

وأرى قبل ان أعرض لهذه الكتب الثلاثة أن أسير مع باركر فى مقدمته لها مكتفيا باستقصاء الفكرة التى ينشدها فى المقدمة دون أن أغوص فى تحليله للمؤلفين الثلاثة وأفكارهم الا فى الحدود

التى لا تمس عرضنا الخاص لآرائهم حتى لا يختلط الأمر على القارىء بين ما نراه وما يراه باركر فى مقدمته .

والواقع ان مقدمة باركر تقدمة مثمرة للقارىء الذى ينشد دراسة العقد الاجتماعى دون أن يتكلف جهدا فى الرجوع الى الأصول التاريخية والفلسفية لفكرة العقد وفلسفته فى مراجعها الأصلية العديدة .

ويرى باركر وهو يفند ما وجه لفكرة العقد الاجتماعى من نقد : « انها ميكانيكية وليست عضوية فى تفسيرها للحياة السياسية وأنها فقهية وليست أخلاقية فى تبريرها للالتزام السياسى ، وأنها فرض اولى ولا تستند الى التاريخ فى توضيحها للمجتمع السياسى والسلطة السياسية » ، يرى أنها فكرة قديمة راودت الأجيال من قبل على أيام افلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد وظلت سادرة تطلع خلال الأحقاب حتى حامت على صفحات « الانسان ضد الدولة » لهربرت سبنسر فى أخريات القرن التاسع عشر .

ففكرة العقد الاجتماعى من حيث أنها تاريخية ترجع الى عهد بعيد بل اننا لنعود بها الى ما قبل أفلاطون كما قلنا ، حيث نرى جذورها فى فلسفات الشرق القديمة ماثلة فى الصين وبابل ومصر الفراعنة ، بل ان الفكرة لتبدو واضحة فى الشرائع السماوية على الأقل ، من حيث الالتزام الأخلاقى ومن حيث الحق والواجب ، فحين يجمع الناس على اعتناق دين من الأديان تبرز مباشرة فكرة الالتزام بالحدود التى جاءت بها الشريعة وهو التزام أخلاقى فى بعض نواحيه وهو التزام قانونى فى نواح أخرى شأنه فى هذا شأن الالتزامات التى يفرضها العقد الاجتماعى ، واذا كان العقد الاجتماعى تعبيرا عن الارادة الحرة لمجتمع بعينه ، فان اجتماع الناس على عقيدة من العقائد هو تعبير أيضا عن ارادتهم الحرة فى اختيار تلك العقيدة وحين يجمعون عليها يلتزمون بطاعتها .

وحين يصدر أصحاب فكرة العقد الاجتماعى عن القانون الطبيعى فانهم يحملون القانون الطبيعى أكثر مما يحتمل .. فان القانون الطبيعى ، كما يبدو لأول وهلة ، ليس قانونا وضعيا ، وانما هو جملة قواعد تعارف عليها المجتمع وأقرها صيانة لوجوده ، تنبع من ذات الفرد واحساسه أكثر مما تنبع من تفكيره ، وحين تتعدى الأحساس الى التفكير ، تنطلق من اطارها الطبيعى الى اطارها الوضعى ، لهذا كانت فكرة العقد الاجتماعى فى منشئها تعبيرا عن الارادة الحرة للمجتمع ، وهى تستند الى حق الانسان الطبيعى فى الحرية والعدالة وهى فى هذا تنبع كالقانون الطبيعى من ذات الفرد واحساسه ، وحين تنطلق هى الأخرى من هذا الأسار الى التفكير ، تنطلق من مرحلة العرف السائد الى التقنين والتشريع .

وثمة حقيقة يجب أن نتبينها ، وان غفل عنها كثير من فلاسفة العقد الاجتماعى حين جهلوا أو تجاهلوا فى فورة حماسهم لنظرية العقد الاجتماعى أن المجتمع الانسانى — أى مجتمع انسانى — كائن عضوى أو أشبه ما يكون بالكائن العضوى ، ينمو بذاته ، وأنه حقيقة ، — كما يقول باركر ص ٣٦ — من حقائق التطور التاريخى ، لم ينشأ نتيجة تعاقد من أى نوع ، فى حين أن الدولة قد تنشأ نتيجة تعاقد ما ، وعلينا أن نفرق بين الدولة والمجتمع فى هذا ، فالمجتمع اذا كان كائنا عضويا يخضع لعمليات التطور والنماء التى يخضع لها الكائن العضوى وبالتالى لا يتم نتيجة لتعاقد يقوم بين أفراده ، فان الدولة على العكس قد تكون عملا انشائيا يقوم به أعضاء المجتمع ، فالدستور هو العقدالسياسى الذىتتكون الدولة بمقتضاه ، وان كان من النادر أيضا — كما يرى باركر (ص ١٣) — أن تنشأ الدولة نتيجة تعاقد الا فى أعقاب الثورات كما حدث فى الثورة الفرنسية ، أو فى حالة الاتحادات الفدراليةكما حدث فى نشأة الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد كان الاتحاد الاشتراكى العربى نتيجة تعاقد تضمنه ميثاق العمل الوطنى ، وقامت الجمهورية العربية المتحدة فى ظله نتيجة لثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ .

ويستطرد باركر فى تتبع المنظور التاريخى لفكرة العقد الاجتماعى فيقول أن البابوية قد احتضنتها « للحد من سلطة الملك » بمعنى أنه

« اذا تعدى الملك بأية صورة من الصور حدود العقد الذى اختير بمقتضاه ، فانه يحل بذلك الناس من التزام الخضوع له » .

الا أن فكرة العقد الاجتماعى لم تظهر فى صورتها النهائية الا فى كتابات القديس « توما الأكوينى » وان استمدت نظريته أصولها من الكتاب المقدس ومبادىء القانون الرومانى ونظريات أرسطو فى السياسة . ونراه يفرق بين ثلاثة مظاهر للسلطة ، فهى من حيث الجوهر من أمر الله ومن حيث الأسلوب من أمر الناس ولهم وحدهم أن يحددوا صورتها ملكية كانت أو أرستقراطية أو ديمقراطية أو مزيجا منهما ، ومن حيث ممارستها فللناس وحدهم أن يقوموها والحاكم الطاغية عنده من حق الرعية الا تحافظ على العقد المبرم بينها وبينه .

وبهذا تبدو نظرية توما الأكوينى فى العقد الاجتماعى ملائمة تماما لطابع الحكم فى العصور الوسطى حيث تقوم العلاقة بين الأمير الاقطاعى وتابعه حين يتعهد التابع بالولاء لأميره وسيده على أن يقوم الأمير برعاية حقوقه وتنفيذ ما جاء فى اتفاقه معه حين خضع له وقبل مشيئته . كما كان الملك الاقطاعى يدخل بدوره فى تعاقد ضمنى مع أمراء الاقطاع التابعين له عندما يتبادلان معا قسم تتويجه . وفى ظل هذه النظرية يصبح للبابا الحق فى حرمان الملك من سلطته وهى المنحة الألهية اذا ما أذنب فى حق المانح .

وظلت نظرية العقدالاجتماعى تحملهذا الطابع اللاهوتى حتى القرن السابع عشر وكانت سندا قويا للأقليات الدينية فى تبرير مقاومتها أى اتجاه يرمى الى فرض دين الأغلبية عليها .

وتبرز فكرة العقد الاجتماعى خلال الصراع الدينى الذى ساد أوربا بعد ذلك فيرى كل فريق فيها سندا لدعواه ، وتظهر كتابات اللوثريين والكالفنيين وحتى الكاثوليك وهى تتخذ من نظرية العقد الاجتماعى سندا لقضاياهم الدينية .

الا أن فكرة العقد الاجتماعى لا تتبوأ اطارها الحديث كنظرية سياسية الا على يد هوبز ولوك وروسو ، ولا تكتمل دراسة النظرية دون دراسة التفكير السياسى لهؤلاء الثلاثة ، وهو ما قام باركر فى مقدمته لهذا الكتاب الذى جمع فيه بين لوك وروسو ، وان اغفل كتاب هوبز « العملاق » Leviathan ، الا أنه لم يهمل الخطوط الرئيسية لنظريته عن العقد الاجتماعى .

ولعله حين ضم رسالة هيوم عن « أصل العقد » دون عملاقهوبز قد وجد فيها ما ينشده وهو ابراز التطور المنطقى والتاريخى لفكرة العقد الاجتماعى فانها دون شك خير تمهيد لدراسة تلك النظرية ، فقد عرض هيوم فى أصل العقد لما يعرف « بعقد الحكم » وهو ما يطلق عليه بالفرنسية Pacte de Gouvernement (وهو ما يجب التمييز بينه وبين عقد المجتمع الذى يطلق عليه بالفرنسية Pacte d' Association ، اذ أن العقد الاجتماعى يتضمنهما معا وان وجب التمييز بينها . فعقد الحكم هو العقد الذى يقوم بين الحاكم والرعية ، فاذا أفترضنا أن هناك عقدا للحكم ، فعلينا أن نفترض قيام جماعة منظمة تربطها فعلا ارادة اجتماعية مشتركة ، هى التى نطلق عليها عقد المجتمع ، كما نفترض وجود حاكم يتحمل أعباء الحكم بالاتفاقمع هذه الارادة)وعلى هذا فان عقد المجتمع لابد وأن يسبق عقد الحكم ، وان عقد المجتمع هو الذى يخلق الجماعة السياسية المنظمة اما عقد الحكم فلا يخلق شيئا سوى السلطة التى تمنحها الجماعة السياسية المنظمة للحاكم الذى ترتضيه ، وحين يجتمع عقد المجتمع الى عقد الحكم تتكون الدولة التى تقوم على أساس العقد الاجتماعى .

وفى تلك الحدود الضيقة من عقد الحكم يختلف لوك وروسو وهوبز كل منهم عن الآخر بالرغم من أن اهتمامهم جميعا قد انصب على عقد المجتمع دون عقد الحكم ، فلوك يرى أن المجتمع متى تكون قد يعين هيئة أو حكومة من الأوصياء . لا يعقد معها اتفاقا ولكن له أن يعزلها اذا ما نقضت شروط الوصاية وفقا لتفسيره لشروط الوصاية ، بينما يرى روسو أن المجتمع متى تكون يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه دون ما تفرقة بين حكام ورعايا مما ينتفى معه قيام أى نوع من التعاقد بين كليهما ، أما هوبز فيرى أن المجتمع بعد أن يتكون

قد يتنازل عن كل حقوقه فى السيادة ويسلمها لانسان فذ هو الذى يدعوه بالعملاق ليغدو صاحب السيادة المطلقة دون أن يعقد اتفاقا مع المجتمع ولا يخضع بذلك لأى حد من الحدود التى يفرضها عقد الحكم .

ولا نحب أن نغرق مع روسو فى أحلامه فان نظريته لابد وان تنتهى بنا بالرغم من بروق الحرية والفردية التى تلمع فى حواشيها الى الجماعية أو النقابية أو تدفعنا فى ركاب الماركسية أو الهيجلية رغم ما بين الاثنتين من فروق جادة أو تحشرنا حشرا فى « دولة المدينة » City State، اذ لو كان للجماعة الصغيرة أن تحكم نفسها بنفسها دون ما تفرقة بين الحكام والرعايا كما كانت المجتمعات اليونانية القديمة ، فان ذلك يبدو مستحيلا بالنسبة للمجتمع الكبير ، وسنرى حتما أن نظرية « فناء الدولة » التى تنتهى اليها الماركسية تطل برأسها بين تعاليم روسو ، ويعلل باركر هذا الاتجاه عند روسو بالأثر الذى تركته حياته فى جنيف على تفكيره حتى غدا داعية فذا لنظام الكانتونات السويسرية ، ولكنه يرى أيضا أن عملاق هوبز يعتلى فى النهاية مركب روسو الحر ، فاذا كان « الفرد سيعطى نفسه للجميع — كما يقول روسو — وهو بذلك لا يعطى نفسه لأحد » ويبقى « سيد نفسه » فانه سيرى نفسه فى النهاية جزءا من كل ، هذا الكل هو عدد أفراد المجتمع الذى ينتمى اليه ، أى أنه يصبح جزءا صغيرا فى مجتمع طغاة ، ولا فرق بين الطاغية الفرد والطاغية عندما يكون « هيئة مندمجة » والعملاق هو العملاق فردا كان أو هيئة مندمجة .

ولا نحب أيضا أن نغرق مع لوك فى نظرته المحافظة التى غدت غذاء وسندا لحزب الأحرار الانجليزى والتى ألهمت نظرية العقد الاجتماعى بفيض من الأفكار المستنيرة كما لا نحب عملاق هوبز الذى يسوس المجتمع ويسوقه مرغما الى الاندماج ، ولكن ما نحب أن نقوله هو أن المجتمع اذ يتكون بذاته ويتطور الى كل متكامل مندمج انما يبحث عن سعادته ، وحين ينشد هذه السعادة يبحث عن مقوماتها من الحرية والعدالة ، وفى هذا نتفق فى المبدأ مع كل من روسو ولوك بل وهوبز أيضا ، وان اختلفنا معهم من حيث الشكل بمعنى أن شكل الحكم من حيث الوسيلة والغاية وممارسة السيادة يكون شكلا طيبا ومثمرا اذا ما حقق السعادة التى ينشدها الفرد والمجتمع ، وما من شك فى أن لكل مجتمع ظروفه التى تنبع من تاريخه وتتحكم فى مصيره ، وما يصلح لمجتمع لا يصلح لمجتمع آخر ، ولم يكن روسو مؤمنا بالديمقراطية البرلمانية ، « فالتمثيل النيابى فى نظره مستمد من نظام الحكم الاقطاعى الجائر السخيف ، والنواب فى مجلسهم كالجنود المأجورين فى الحرب ، والشعب الانجليزى يعتقد نفسه حرا ، وهو بذلك يخدع نفسه الى حد كبير ، فهو ليس حرا الا أثناء الانتخابات العامة » ، بينما يذهب لوك الى النقيض ويرى أن قوة المجتمع فى صورتها الطبيعية تتمثل فى الأغلبية ، وللأغلبية أن تستعمل تلك القوة فى سن القوانين للمجتمع » ويضع بذلك قواعد الحكم النيابى كما عرفته بريطانيا .

وخلاصة القول ان نظرية العقد الاجتماعى وان أنكرها المؤرخون الذين يقولون مستندين الى وقائع التاريخ وحقائقه ، انه لم يحو شيئا من هذا القبيل ، كما أنكرها رجال القانون الذين يعرفون ما هى العقود الحقيقية ، وان عقدا من هذا النوع لم يقم فى الهيئة الاجتماعية لا بكونها مجموعة من الأفراد المتحدين ولا بكونها كلا متماسكا ، قد أصبحت حقيقة واقعة لا ننكر أن لها جذورا من الواقع التاريخى والقانونى معا ، فحيث يجمع الناس على حقيقة سياسية أو أخلاقية ، تنعكس على سلوكهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، يبدو الواقع التاريخى كما يراه المؤرخون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لانعكاس المثل الأخلاقية والسياسية المجردة على سلوك الناس وأعمالهم ، وهذا الواقع هو الذى يهم المؤرخ ولا يعنيه أن يتقصى حوافزه النفسية قدر ما تعنيه الحوافز المادية الملموسة ، وبذلك تبقى الحوافز النفسية بعيدة عن عمل المؤرخ ، ولكن الفيلسوف يراها حقيقة تكمن فى أعماق الناس

وأحساسهم بوجودهم الكائن ، فان أغلق المؤرخ أبوابه دونها ، يبقى الفيلسوف على استعداد دائم لتلقفها لتصبح على يديه حقيقة واقعة يعنى المؤرخ بنتائجها دون أن يعنى بأصولها النفسية القابعة فى أعماق النفس البشرية ويظل المؤرخ والفيلسوف على خلاف دائم حول حقيقة وجودها وهنا يتجلى عمل المؤرخ الفيلسوف فيعتلى قمة لا يرقى اليها الفيلسوف وحده ولا يعتليها المؤرخ الذى يحبس نفسه فى صومعة الحقائق المادية .

فالجذور التاريخية للعقد الاجتماعى تبدو واضحة فى اجتماع الناس على سلوك معين ومثل أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية واحدة ، بينما يبدو تعارف الناس عليها والتزامهم بها سندا قانونيا لها ، وغالبا ما يكون العرف أقوى من التعاقد ، والالتزام الأخلاقى أقوى من القانون ، بل ان القانون غالبا ما يقوم لحماية العرف والتقاليد والمثل الأخلاقية والاجتماعية بل والسياسية فى المجتمع الانسانى ، ويتقدم دائما لحماية المثل والاعراف فى المجتمعات المتحدة المنظمة .

واذا كان لنا أن نصمت أمام المؤرخ أو نتحرج أمام رجل القانون فان علينا حتى كمؤرخين ، أو من رجال القانون ألا ننكر الثمار الطيبة للعقد الاجتماعى فى حقل التقدم السياسى ، وقضايا الحرية بوجه عام ، ففى ظله ترعرعت ثورة ١٦٨٨ فى انجلترا ، وأينعت الحرية السياسية والنظام البرلمانى الانجليزى ، وفى رحابه قامت الثورة الأمريكية عام ١٧٧٦ التى انتهت باستقلال أمريكا وقيام الولايات المتحدة الأمريكية ، ولفحت ريحه العبقة « صموئيل أدامز » و «توماس جفرسون» فانعكست على وثيقة « أعلان الاستقلال » الأمريكى ، وفى الثورة الفرنسية أصبح العقد الاجتماعى نشيد الثورة المحبب ، بل لنقول مع باركر ان وثيقة « حقوق الانسان » التى أعلنتها الثورة قد « رضعت لبان روسو » .

ويمكن أن نقول أكثر من هذا : ان الثورات الاشتراكية والمذاهب السياسية المعاصرة قد لفحتها ريح العقد الاجتماعى لفحا قويا أينعت فى أجوائه حقوق العمال والطبقات الكادحة ، وانها ظلت تلفح عاتية عاصفة كل نظام جائر يقوم على التفاوت الطبقى وكبت الحريات وهضم حقوق الشعب ، وما زالت كلمة روسو « يجب ألا يبلغ مواطن من الثراء ما يجعله قادرا على شراء غيره ولا من الفقر ما يحمله على بيع نفسه » غذاء لكل مذهب اشتراكى .

الدكتور حسين فوزى النجار

سطور من كتاب ...

« لقد استطاع نابليون الأول أن يفيد من أفكار روسو عن سيادة الشعب وعن الارادة العامة ليقيم حكومته المطلقة بعد أن حصل على تأييد الأمة له فكان استبداده علميا . لقد أقام حكمه المطلق على أساس أن تلك هى ارادة الأمة وانه اذا تكلم القانون وجب على الضمير أن يصمت لأن القانون يعبر عن ارادة الأمة صاحبة السيادة » .

... أمهات الأفكار السياسية الحديثة

تأليف : أغناطيوس كراتشكوفسكي
ترجمة : الدكتور صلاح الدين هاشم

تاريخ الأدب الجغرافي

القسم الأول

الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر
عدد الصفحات ٤٦٩ ص ٢٣ × ٣٠ سم .

هذا كتاب ممتاز ، أعد ، من خير ما أخرجت المكتبة العربية من كتب علمية فى تاريخ العلوم عند العرب . وترجمته الى العربية عمل جليل ، خصوصا والمترجم ، الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم ، من السودان ، قد ترجمه عن اللغة الروسية مباشرة ، ولم يترجم الى لغة أخرى : انجليزية أو فرنسية ، حتى يكون فى متناول الباحثين .

ولم يوجد فى بابه غير كتاب جوزف رينو (١٧٩٥ - ١٨٦٧) المستشرق الفرنسى المعروف الذى بدأ فنشر مع ماك جوكين دى سلان كتاب « تقويم البلدان » لأبى الفدا سنة ١٨٤٠ ثم ترجم الكتاب الى الفرنسية وجعل لهذه الترجمة مقدمة تؤلف كتابا برأسه فى قرابة ٤٥٠ صفحة جعله الجزء الأول بعنوان : « مدخل عام الى الجغرافيا عند الشرقيين » وفيه درس تأريخ الجغرافيا عند العرب ، وظهر فى باريس سنة ١٨٤٨ بعنوان :

Geographie d' Aboulfèda, trad. de l'arabe en français par AEINAUD , vol I : Introduction générale a la Geographie des Orientaux Paris 1848.

ومنذ دراسة رينو هذه لم يظهر غير مقالات متفرقات عن الجغرافيين العرب ، الى أن جاء أجناتى كرتشكوفسكى (١٨٨٣ - ١٩٥١) فألف هذا الكتاب الذى نحن بسبيل التحدث عنه .

وكرتشكوفسكى من تلاميذ روزنا ، المستشرق الروسى الكبير (١٨٤٩ - ١٩٠٨) . وقد بدأ بتعلم العربية صغيرا بمعونة كتاب النحو العربى الذى وصفه دى ساسى ؛ ولما دخل الجامعة تتلمذ على ردن فدرس على يديه اللغة العربية ، وتتلمذ على بارتولد (١٨٦٩ - ١٩٣٠) فدرس عليه التاريخ « الاسلامى » ، كما حضر دروس مليورانسكى (١٨٦٨ - ١٩٠٨) العالم بالتركيات ، وزوكوفسكى (المتوفى سنة ١٩١٨) أستاذ الايرانيات ، وكوكوفكوف استاذ الساميات . وكانت رسالته عن أبى الفرج الوأواء الشاعر الدمشقى : نشرة محققة لديوانه ؛ والوأواء من شعراء سيف الدولة ؛ وأضاف الى نشر النص العربى ترجمة روسية ومقدمة ضافية فى تاريخ الشعر ، انتهج فيها منهج أ. ن. فسلوفسكى فى تأريخ الأدب . ومن ثم بدأت دراسات كرتشكوفسكى فى ميدان الشعر والبلاغة والنقد الأدبى العربى ، مما تجلى خصوصا فى نشرته الممتازة لكتاب « البديع » لابن المعتز الشاعر العباسى . ثم اهتم بأبى العلاء المعرى ، وكانا من آثر الشعراء عنده .

ورحل كرتشكوفسكى الى الشرق العربى فأمضى فيه عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ فزار سوريا ومصر . واهتم باللغة العامية وأمضى شتائين فى جامعة القديس يوسف ببيروت حيث انعقدت الصلات الوثيقة بينه وبين لويس شيخو وأنطون

* مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ فى ٤٦٩ صفحة من قطع مزدوج الجاير .

صالحانى (ناشر ديوان الأخطل) . كذلك عرف أمين الريحانى وجرجى زيدان ومحمد كرد على واحمد تيمور باشا ، فاتصل بهم واطلع على النهضة العربية الجديدة ، ووجهه ذلك الى الاهتمام بالأدب العربى المعاصر ، فكتب عنه عدة مقالات وترجم منه نصوصا ، وخصوصا أنه عنى بالقصة التاريخية فى الأدب العربى الحديث ، وكتب فى دائرة المعارف الاسلامية مواد تتعلق بالأدب العربى الحديث . واشتغل مع برنوف فى سبيل اعداد معجم بلغة الأدب العربى الحديث

وأمضى وقتا طويلا فى المكتبات العربية فى القاهرة والاسكندرية وبيروت ثم رحل الى هلنه ولبتسك وليدن فى سبيل دراسة بعض المخطوطات وعين مديرا للقسم الاسلامى فى المتحف الآسيوى الذى يضم كثيرا من نفائس المخطوطات العربية .

وفى سنة١٩٤٥ نشر ذكرياته عن الكتب والناس فلقيت نجاحا هائلا وترجمت الى الألمانية سنة ١٩٤٩ والبولندية سنة ١٩٥٢ والانجليزية سنة ١٩٥٣ والفرنسية سنة ١٩٥٤ وفيها يذكر ما عرفه من نفائس المخطوطات ومن لقيهم من العلماء .

وقد كتب نبذة صغيرة عن تاريخ حياته باللغة العربية ، ونشرت فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٢٧ (المجلد السابع ص ١٢٢ — ١٢٦) وقد احسن المترجم العربى بنقلها فى مقدمة ترجمته العربية .

وقد طبع كتابه هذا لأول مرة سنة ١٩٥٧ بوصفه الجزء الرابع من « منتخبات آثار أ . ى كراتشكوفسكى » ؛ وانما طبع منه قبل ذلك فصولا متفرقة اما كاملة أو مبتورة ، على هيئة مقالات مستقلة . وكان تأليفه له فى الفترة بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٤٥ ؛ فكأن الكتاب لم ير النور بصورته الراهنة فى حياة المؤلف ، الذى توفى فى سنة ١٩٥١ ؛ وقد أشرف على طبعه زوجته وميخايلوفا ، يعاونهما بليائف وبيكوف وبيسارفسكى . وتسريتلى .

والترجمة العربية التى بين أيدينا هى للقسم الأول من الكتاب، وتصل بنا الى تاريخ الجغرافيا فى القرنين التاسع الهجرى والعاشر (الخامس عشر الميلادى والسادس عشر) . وقد توخى المؤلف فيه الترتيب التاريخى فبدأ ببداية الجغرافيا الرياضية عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية الأولى ، وقفى على ذلك بدراسة بداية الجغرافيا عند العرب ، ثم الجغرافيين العرب المتأثرين بكتب الجغرافيا اليونانية (الخوارزمى ؛ سهراب ؛ يعقوب الكندى ؛ البتانى ؛ ابن يوسف الصدفى ؛ ابراهيم الزرقانى ؛ الخازنى ؛ المراكشى ؛ نصير الدين الطوسى ؛ الخ) .

وفى الفصل الرابع تناول الجغرافيين اللغويين (أبو حنيفة الدينورى ، النضر بن شميل ، هشام ابن الكلبى ، الأصمعى ، عرام بن الأصبغ ، الخ) وما يستفاد من كتبهم اللغوية من معلومات جغرافية .

وتبدأ الجغرافيا الحقيقية بالقرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حيث نجد أعلام الجغرافيين العرب : ابن خرداذبة ؛ اليعقوبى ؛ البلاذرى ؛ ابن الفقيه ؛ ابن رسته ؛ قدامة ابن جعفر ؛ ثم من كتبوا عن مدينة مدينة مثل الأزرقى (مكة) ، ابن عبد الحكم (مصر) الخ .

ويخص المسعودى بفصل ضاف لأهميته البالغة ؛ ثم يتحدث عن الرحالة الذين زاروا الأصقاع الشمالية (روسيا وغيرها) فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مثل ابن فضلان الذى كان عضوا فى سفارة تم اعدادها تلبية لطلب بلغار الفولجا الذين بعثوا برسول الى بغداد يلتمسون المعونة ضد ضغط الخزر عليهم



من الجنوب كما يلتمسون أن يرسل اليهم من يفقههم فى شئون الدين ، فكان أحمد بن فضلان هو هذا الفقيه . وقد كتب عن رحلته هذه رسالة اهتم بها المستشرقون الروس والدانيمركيون ، فكتب عنها فرين المستشرق الروسى بحثا ضافيا .

ثم نصل الى المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا العربية وهى التى يؤلفها جغرافيو القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وعلى رأسها : البلخى ، والاصطخرى ، وابن حوقل ، والمقدسى . وبها تبدأ الخرائط الجغرافية العربية .

وفى القرن التالى (الخامس الهجرى ، الحادى عشر) نلتقى بشخصية عظيمة جدا فى تاريخ العلم كله ، ونقصد بها البيرونى ، وله فى الجغرافيا كما فى غيرها مكانة ممتازة وان كانت كتبه الجغرافية أدخل فى علم الفلك والنجوم منها فى الجغرافيا بالمعنى المحدود ، وله فى ذلك كتابان : « القانون المسعودى » و « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » . والى القرن نفسه ينتسب أكبر جغرافى اندلسى وهو أبو عبيد البكرى صاحب كتاب « المسالك والممالك » .

وتبلغ الجغرافيا العربية أوجها عند الادريسى الذى اشتغل فترة فى بلاد روجار ملك النورمانديين بصقلية ، وصاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ثم « روض الأنس ونزهة النفس » ؛ وكان له فضل عظيم فى رسم خريطة العالم كما عرف فى ذلك الوقت .

والمؤلف فى ذكره لكل علم من هؤلاء يتحدث عن اهميته وما نشر له ، ومصادره ، وقد يتحدث عن المخطوطات والدراسات التى كتبت حول المؤلف والكتاب وما ترجم الى اللغات الأوربية .

* * *

وليس فى وسعنا أن نقارن بين الترجمة والأصل حتى نحكم على مدى التزام المترجم للنص الذى ينقل عنه . ولهذا نكتفى هنا بالاشارة الى ملاحظات عنت لنا أثناء قراءة الترجمة :

أ ـ لاحظنا وقوع أخطاء نحوية ولغوية لا حصر لها ، ونذكر على سبيل المثال :

(١) ص ١٠٩ : وفى كلى جدوليه ـ الصواب : وفى كلا جدوليه .

(٢) ص ١٣٢ : أن أخ الخليفة ـ والصواب : أن أخا الخليفة .

(٣) ص ١٣٧ : فابصروا قطعان هائلة ـ والصواب : قطعانا .

(٤) ص ١٣٧ : المفررين (بفتح الراء المشددة) ـ والصواب : (بكسر الراء المشددة) .

(٥) ص ١٦١ س٧ : موظفوالدولةالعديدين ـ والصواب : العديدون .

(٦) ص ١٧٠ س ٦ : أقيم ـ والصواب : أقوم .

(٧) ص ١٨٠ س ١٠ : باتت ـ والصواب : بائت .

(٨) ص ١٨٠ س ١١ : تتبع ـ والصواب : نتبع .

(٩) ص٢٠٧ س١٢ : الأخروات ـ والصواب : الأخريات .

(١٠) ص٢١٩ س٥ : خلفوا آثار ـ والصواب : آثارا .

(١١) ص ٢٢١ س ١١ : فى هنا ـ والصواب : فى هذا .

(١٢) ص ٢٢٥ السطر الأخير : وقد حدث هذا مرتان ـ والصواب : مرتين .

(١٣) ص ٣٣٦ س ١٧ : مضيفين آخرين لياقوت أقلا حجما ـ والصواب : أقل .

(١٤) ص ٣٨٣ س ١٠ : كلا الرحلتين كانتا فى جوهرهما تمثلان ـ والصواب : كلتا الرحلتين كانت فى جوهرها تمثل .

(١٥) ص ٤١٩ س ٣ من أسفل : أن ثمة خلط ـ والصواب : خلطا .

(١٦) ص ٤٢٤ س ٦ من أسفل : وهى نيفا وعشرين عاما – والصواب : نيف وعشرون .

أما الأخطاء المطبعية ، خصوصاً فى أسماء المراجع الأفرنجيــة ، فوافرة جداً ، وكان من الواجب تداركها .

ب – وأخطاء فى كتابة الأعلام ، نذكر منها :

(١) ص ٦١ : ساويرس سبوكت – وصوابه : سويرس سيبوخت .

(٢) ص ١٦٤ : أبو لون التيانى – وصوابه : بلنياس الطوانى .

(٣) ص ١٦٤ : الفنيين Finns – وصوابه : الفنلنديين .

(٤) ص ١٧٧ : الصحابى مسعود – وصوابه : الصحابى ابن مسعود (عبد الله) .

(٥) ص ٣١٦ : الخـرقى – وصــوابه : الخيوقى .

(٦) ص ٢٢٨ : ساويرس برشكو – وصوابه : سويرس برشكو .

(٧) ص ٢٥٧ : كراوســـــه Krause – وصوابه : كراوس Kraus (پاول) .

(٨) ص ٢٦٠ : أرجّان –والصواب : أرّجان (الشدة على الراء لا الجيم) .

(٩) ص ٣١٦ ، ٣١٧ : الخرقى – وصوابه : الخيوقى (نسبة الى خيوة) .

(١٠) ص ٣١٧ س ١٣ : الخازم – وصوابه : الخازن .

(١١) ص ٤٢٠ : الأب لامنز – وصـــوابه لامانس .

(١٢) ص ٧٦ س ٢ : زيك شـــترو آيار وصوابه : زيك شتر أيار (وهــو كتاب بهلوى نقل الى العربية – راجع نلينو ص ١٨٦) .

(١٣) ص ٧٦ س ١٨ : قلعـــــة كنكوز – وصوابه : كنگوز (بالجاف بالفارسية) .

ج – وأخطاء فى الأرقام ، ونذكر منها :

(١) ص ١٢٤ : ٩٦١ هـ – وصوابه : ٩٦١ م .

(٢) ص ١٨٩ : المؤتمر الدولى الثالث عشر – وصوابه : الثالث .

(٣) ص ١٨٩ : ١٩٦٧ – وصوابه : ١٩٢٧ .

د – وأخطاء فى ترجمة الاصطلاحات العلمية ، مثلا[1] :

(١) ص ٧٦ س ٢٦ ، ٢٢٨ س ٦ : نظـــرية الأزمنة الكونية – والصواب : نظرية الأكوار .

(٢) ص ٣١٧ : على رأى العين de visu والصواب : على العنان ، رؤية العين .

(٣) ص ٤١٠ : الـــــرب، Quartenfieber – والصواب : حمى الربع (بكسر الراء – وهى حمى تنوب يوما وتترك يومين ، وذلك أنها تأخذ فى الأيام الثـلاثة ثمانى عشرة ساعة ، وهى ربع ساعات الأيام ، فسميت باعتبار الساعات) .

ولكن هذه الهنات الهينات ليس من شأنها أن تنتقص من قدرة هذه الترجمة الجيدة التى بذل فيها صاحبها جهداً رائعا خليقا بكل تقدير ونأمل أن يصدر القسم الثانى فى أقرب وقت .

الدكتور عبد الرحمن بدوي

---

(١) ص ٧٦ س ٢٦ ، ص ٢٢٨ س٦ : نظرية الأزمنة الكونية – والصواب : نظرية الأكوار

قضايا أندلسية

تأليف : الدكتور بدير متولى حميد

الناشر دار المعرفة ، عدد الصفحات ٤٢٩ ص ١٤×٢٠ سم



هذا كتاب يحاول درس الشعر الأندلسى ، ويركز اهتمامه فى خمس قضايا باعتبارها ـ فى نظر المؤلف ـ أهم ما يدرس فى هذا الشعر . وتلك القضايا هى : « الشعر الأندلسى قبل القرن الرابع » ، و « الشعر الأندلسى بين التقليد والتجديد » و « أثر البيئة الأندلسية فى الشعر » ، وأخيرا « الموشحات الأندلسية ونشأتها »

وقد أفرد المؤلف لكل قضية من تلك القضايا فصلا ، فجاء الكتاب فى خمسة فصول .

فى الفصل الأول ـ « الشعر الأندلسى قبل القرن الرابع » ـ اشار المؤلف أولا الى صعوبة درس الشعر فى هذه الفترة ؛ بسبب قلة مصادره وعدم ترتيب مادته وقلة عناية الدارسين به ، ثم انتقل الى بيان طبيعة هذا الشعر ، فبين أنه كان شعرا مشرقيا ؛ قد وفد مع بعض العرب الداخلين الى الأندلس فى زمن الفتح ، ثم مع بعض الأندلسيين الذين كانوا يذهبون الى المشرق بعد الفتح ، للتعلم وجلب الزاد الفكرى والفنى الى بلادهم ، وفى مقدمة ذلك الشعر . ومن هنا كانت خصائص الشعر العربى فى الأندلس حينذاك مشرقية ، ولم تبد خصائص أندلسية فى تلك الآونة ؛ لأن العرب فى الأندلس لم يكونوا قد التفتوا الى بيئتهم الجديدة ؛ لانشغالهم بالحروب والمنازعات .

ثم وضح المؤلف أن أهم قائلى الشعر فى تلك الفترة ، هم الأمراء المروانيون وبعض الرؤساء الآخرين ، ثم بعض المتصلين بهؤلاء وهؤلاء من علماء ومؤدبين .

أما أهم أغراض الشعر حينذاك ، فكان الغزل ، الذى أكثر منه الأفراد المروانيون بخاصة والذى سبق شعر الطبيعة ازدهارا فى بيئة الأندلس .

وفى آخر هذا الفصل وضح المؤلف ان الشعر الأندلسى استمر فى تلك الفترة تقليديا ، حتى دخله شىء من التجديد فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، اى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، ثم تزايد هذا التجديد ، حتى اتضحت معالمه فى عهد الأمير عبد الله ، أى فى أواخر القرن الثالث الهجرى . وكان هذا التجديد يتمثل فى : الرقة والوضوح وخفة الوزن وطرافة المعنى ـ كما يقول المؤلف .



وفى الفصل الثالث – « الشعر الأندلسى بين التقليد والتجديد » – بين المؤلف أن الأندلسيين كانوا أول الأمر يتجهون الى المشرق محاولين تقليد شعرائه ، ثم اتضحت شخصيتهم تدريجيا ، وتبلور تجديدهم فى أواخر القرن الثالث ، فمثلا فى شاعرهم الكبير أحمد ابن عبد ربه ، الذى جدد تجديدا واضحا فى المعانى والأساليب والأخيلة والصور ، ثم حاكاه من جاء بعده من الشعراء الأندلسيين كابن هانىء والرمادى وابن دراج ؛ حتى صار التجديد اتجاها واضحا فى الشعر الأندلسى الى نهاية العصور العربية فى تلك البلاد .. والمؤلف يرى أن وراء الاتجاه التجديدى عند الأندلسيين دافعين ، الأول : التأثر بحركة التجديد المشرقية التى تزعمها أبو نواس ، والثانى : الانفعال بالبيئة الجديدة التى عاش فيها الأندلسيون .. ويرى المؤلف كذلك أن أهم سمات التجديد عند الأندلسيين بعد القرن الرابع ، وبعد وضوح هذا التجديد كاتجاه هى : الالتفات الى موضوعات بيئية كالطبيعة الأندلسية ومظاهر الحضارة والجمال فيها ، ثم الميل الى نظم ما يشبه القصص القصار مما يدور بين الناس من أحاديث وما يقع فى حياتهم من طرف ، ثم ايثار النظم فى ألفاظ سهلة ومعانى مجددة وصور طريفة وأوزان قصيرة ؛ كل ذلك من حسن التشبيه وجمال الاستعارة ، وما الى ذلك من محسنات بيانية .. وهكذا برز – فى رأى المؤلف – اتجاهان فى الشعر الأندلسى ، الأول : الاتجاه التقليدى الذى عرفوه أول ما عرفوا الشعر ، والذى استمر طول عهدهم بالأندلس ممثلا فى محاكاتهم للمشارقة ومعارضتهم لهم ؛ والثانى : هو الاتجاه التجديدى الذى اتضح منذ أواخر القرن الثالث ، وظل الى جانب الاتجاه التقليدى ، ممثلا فيما سبقت الاشارة اليه من مظاهر تجديدية عديدة .

وفى الفصل الثالث – « أثر البيئة الأندلسية فى الشعر » – وضح المؤلف أن تلك البيئة كانت مفعمة بأجمل المناظر الطبيعية والبشرية ، وذكر أنها كانت على كثير من التحرر وحب مباهج الحياة ولذائذ العيش ؛ لذلك كله كثر فيها وصف الطبيعة والغزل والخمريات ووصف مجالس اللهو ، كما كثر شعر المجاوبات ، التى تعتبر رسائل شعرية تتحد فى الوزن والقافية ، بين رسالة المرسل ورد المجيب .. كذلك وضح المؤلف أن ذلك كله قد أدى الى شيوع الشعر وازدهاره ، حتى تغلغل فى صميم حياة الأندلسيين وحتى أصبح شعبيا بصورة واضحة حين اخذ قالب الموشحات والأزجال .

وفى الفصل الرابع – « الفنون التى برع فيها الأندلسيون » – اكمل المؤلف بكثير من التفصيل والشواهد فكرة الفصل الثالث ؛ فبين أن البيئة الأندلسية كانت مسرحا لكل فنون الشعر ، غير أن الفنون الشعرية لم تكن على درجة واحدة ، من حيث الاجادة ومن حيث الكم . وذكر أن أهم الفنون كانت ثلاثة : شعر الطبيعة ، وشعر الغزل ، والشعر الحزين .. ثم فصل المؤلف القول فى كل هذه الفنون ؛ فبين أن الأندلسيين وصفوا « الرياض والحدائق وما فيها » وخاصة الورود والنرجس والسوسن والياسمين والريحان ، ثم التفاح والعنب والرمان والنارنج

والسفرجل . كل ذلك فصل المؤلف القول فيه موردا كثيرا من النصوص . كما فصل القول بالنصوص كذلك فى حديث الأندلسيين عن « المياه ومجاريها » من أمطار وأنهار وبحار وغوارات وسواق ، ثم ما يتصل بالمياه من زوارق وسفن وأساطيل .. وأخيرا عرض المؤلف – مع ذكر الشواهد – لوصف الأندلسيين « للحيوانات والطيور » و « العلويات » و « المصنوعات » ، وقرر أن أهم الوصافين فى الأندلس اثنان ، هما : ابن حمديس وابن خفاجة ، وذكر أن الأول أفضل من الثانى ، وعلل لذلك بأن ابن حمديس فى معانيه ادق واطرف ، وفى تصويره أرقى وأروع ، وفى خياله أسمى وأبرع ؛ وخاصة حين يصف البرك والفوارات والقصور ، وحين يشبه الرسوم والتصاوير بما لا يلحقه فيه شاعر أندلسى آخر . وهو – لذلك – يفوق جميع شعراء الأندلس ، وذلك فى نظر المؤلف بطبيعة الحال .. وبعد حديث شعر الطبيعة ينتقل الحديث الى شعر الحب ، فيبين المؤلف أن الأندلسيين أجادوا فى هذا الباب لروعة الجمال البشرى أمام أعينهم ولما عرفت به الأندلس من كونها أعظم سوق للرقيق فى تلك السنين ، وكونها محطا لأعداد هائلة من الاسبانيات السبايا .. كذلك يبين المؤلف أن الأندلسيين أكثروا من الغزل بالمذكر ؛ وذلك – فى نظره – لكثرة الغلمان بينهم ، من سقاة ونحوهم ، ثم لشيوع التعلق بهؤلاء الغلمان ؛ بسبب كثرة النساء فى الأندلس كثرة يرى المؤلف أنها ربما زهدت فيهن ، وصرفت ميول بعض الرجال عنهن !! .. ثم يقرر المؤلف أن الغزل بنوعيه : المادى والروحى ، قد شاع فى الأندلس ، كما وجد الغزل القصصى المشبه لغزل ابن ابى ربيعة .. وأخيرا يلمح المؤلف بعض ظواهر تتعلق بشعر الحب فى الأندلس ، منها أن الأندلسيين لم يوجد بينهم مدله بالحب كمجنون بنى عامر مثلا ، ومنها استعباد الحب لكثير من الملوك والأمراء ؛ حتى لقد تمنى بعضهم فى شعره أن يهب ملكه لمن يحب ، ومنها كثرة الغزل بالمذكر .

ويختم المؤلف هذا الفصل الرابع بالحديث عن الفن الثالث الذى برع فيه الأندلسيون ، وهو « الشعر الحزين » فيبين أن الأندلسيين أجادوا الشكوى والتحسر والرثاء ، وخاصة رثاء المدن والديار ، ثم يوضح أن ذلك لم يكن جديدا ؛ فقد سبق به المشارقة ، غير أن الأندلسيين أكثروا منه وجددوا فيه . وفى الحديث عن الشعر الحزين عند الأندلسيين يورد المؤلف كثيرا من الشواهد ، كقصيدة ابن عبدون ، وكقطع لابن عباد وبعض أصدقائه من الشعراء .. وقد لاحظ المؤلف عدة ملاحظات على ما سماه « الشعر الحزين » . ومن تلك الملاحظات ، أن أشعار الأندلسيين فى هذا الباب خالية من التعمق الفلسفى .

وأخيرا يختم المؤلف كتابه بالمقال الأخير عن « الموشحات الأندلسية ونشأتها » فيذكر أن الموشحات فن من الشعر اخترعه الاندلسيون فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأن أول من أنشأ موشحة هو مقدم بن معافى القبرى ، الذى كان من شعراء فترة الأمير عبد الله ، ويشير الى ما ذكره ابن بسام بتحفظ ، من أن أول من أنشأ موشحة هو محمد بن محمود القبرى ، الذى هو من شعراء نفس الفترة .. وقد فهم المؤلف من حديث المستشرق الأسبانى « جارثيا جومث » أن الأسبان هم مخترعو الموشحات ، فأخذ يدافع دفاعا حارا عن كون الموشحات اختراعا عربيا خالصا .. ثم تكلم المؤلف فى أوزان الموشحات ، فذكر – بناء على قول ابن سناء الملك – أنها من حيث الأوزان قسمان ، قسم جار على أوزان الشعر العربى ، وهو ضربان : ضرب تتخلله تفعيلة أو حركة تخرجه عن الوزن العربى ، وضرب لا تتخلله تفعيلة أو حركة ما . أما القسم الثانى فهو ما ليس جاريا على أوزان الشعر العربى أصلا ، وانما هو جار على أساس التلحين والتنغيم ، حتى لا يحس له وزن بغير ذلك ، وهذا القسم هو الذى ذكر ابن سناء الملك أنه عجز عن أن يضع له مقاييس أو يضبط له تفاعيل .. ثم ذكر المؤلف – تبعا لابن سناء الملك أيضا – أن أغلب الموشحات يتألف من خمسة أبيات ، (أى فقرات) وستة اقفال . والأقفال هى الأجزاء التى تتكرر بعد كل فقرة مع اتفاق فى الوزن والقافية مع المطلع .. وفى نهاية هذا

الفصل تكلم المؤلف عن أغراض الموشحات وألفاظها ؛ فبين أنها هى أغراض الشعر القصيدى وألفاظه ، غير أن الموشحات تغلب فى الطبيعة والغزل والخمر ، وأن ألفاظها أسهل وأبسط ؛ للتوجه بها الى أوساط الناس والعاديين منهم ، أى لأنها شعبية بحكم طبيعتها . ولذا كانت نهايات بعض الموشحات باللغة العامية ؛ نظرا لشعبيتها الموغلة .

* * *

وليس من شك فى أن وراء هذا الكتاب جهدا كبيرا ، واخلاصا صادقا ، ومحاولة جادة لدرس بعض مشكلات الشعر الأندلسى والوصول فيه الى نتائج . وأعظم ما يتضح فيه ذلك ، هذا الحشد الهائل من النصوص الشعرية ، التى تحتاج فى استخراجها وتبويبها وفهم ظروفها الى صبر وحسن بصر . وقد وفق المؤلف الى حد كبير فى محاولة القاء الضوء على الشعر الأندلسى ، وفى محاولة ربطه باطاره الزمانى والمكانى . غير أن هناك بعض ملاحظات لا تنقص مما فى الكتاب من جهد ، ولا تغض مما وراءه من اخلاص ، ولا تقلل من قيمة المحاولة الجادة التى أسهم بها المؤلف فى القاء الضوء على الشعر الأندلسى .

وبعض تلك الملاحظات يتعلق بالمنهج والخطة التى سار عليها الكتاب ، وبعضها يتصل بالاستنتاجات والأحكام التى قدمها البحث ، كما أن منها ما يرد الى مسائل علمية ، تاريخية أو لغوية أو نحو ذلك .

أما ما يتعلق بالمنهج ، فيلاحظ أن الكتاب لم يتخذ خطة تخلق منه بحثا متكاملا ؛ بحيث ترتبط أبوابه وتتآزر فصوله وتتدرج مقدماته لتوصل آخر الأمر الى نتائج أقرب الى الصحة . وانما جاء الكتاب على هيئة مقالات توشك أن تكون مستقلة ؛ مما سبب التكرار حينا ، وأدى الى النقص حينا آخر . ومما أدى الى التورط فى بعض الاستنتاجات السطحية ، وبعض الأحكام المتناقضة أو البعيدة عن الصحة .

وقارىء الكتاب يحس فقدان المنهج ، حين يرى محاولة لدرس الشعر الأندلسى دون رؤية لهذا الشعر من خلال الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التى احاطت به ، اللهم الا كلمات عابرة تأتى هنا وهناك ، دون أن تلقى ضوءا كاشفا على هذا الشعر . كما يحس القارىء فقدان المنهج ، حين يرى الفصل الأول عن « الشعر الأندلسى قبل القرن الرابع » ثم يرى الفصل الذى يليه عن « الشعر الأندلسى بين التقليد والتجديد » فالقارىء يرى المؤلف فى الفصل الأول يؤرخ للشعر فى فترة على أساس زمنى ، ثم يراه فى الفصل الثانى يؤرخ للشعر فى فترة أخرى ، ولكن على أساس فنى . وكذلك يرى القارىء أن المؤلف قد أرخ فى الفصل الأول للشعر فى نحو قرنين ، ولكنه أجمل فى الفصل الثانى فأرخ للشعر فى نحو ستة قرون ؛ وذلك رغم اختلاف أحوال الشعر فى الأندلس فى تلك الفترة الطويلة من عهد الى عهد ومن اقليم الى اقليم .. كذلك يحس القارىء فقدان المنهج ، حين يرى المؤلف قد كرر كثيرا بين الفصلين الثالث والرابع ، لأن كليهما عن الشعر بعد القرن الرابع وأثر البيئة فيه ؛ ولأن خلاصة الفصلين توشك أن تكون واحدة .. وأخيرا يحس القارىء فقدان المنهج حين يرى الفصل الخامس — وهو فصل الموشحات — يتناول موضوعا كان مكانه الفصل الثانى ، وهو الخاص بالحديث عن التجديد ؛ لأن الموشحات ابرز ظاهرة أندلسية تجديدية فى الشعر الأندلسى . كذلك كان القارىء ينتظر أن يعرض المؤلف للظروف المختلفة التى أدت الى ظهور فن الموشحات ، والتى ادت الى أن تلتقى فيها عامية العربية بعامية اللاتينية .

أما ما يتصل بالاستنتاجات والأحكام ، فيلاحظ أن الكتاب تضمن طائفة منها وقد بعدت عن الدقة ، بل وصلت أحيانا الى التناقض والخطأ .. ومن أمثلة الأحكام غير الدقيقة ، تحديد الشعر الشعبى بانه « ما يقوله كل أفراد الشعب » (١) مع أن للشعر الشعبى مفهومات علمية محددة أو شبه محددة ، ليس منها على كل حال هذا المفهوم الذى تضمنه الكتاب .. ومن أمثلة الاستنتاجات غير الدقيقة ، تفسير

(١) انظر : الكتاب ص ٣١ ، ١٢٦ .

الكتاب لظاهرة شعر المدح بفقر الشعراء (١) ؛ لأننا نعلم أن ظاهرة المدح والتكسب بالشعر لها أسباب كثيرة ، ربما كان من بينها فقر بعض الشعراء ، ولكنه اقلها أهمية ؛ فلسنا ننسى ما كان عليه كثيرون من الشعراء من ثروات وغنى ، ومع كل ذلك كانوا مداحين لدوافع غير الفقر .. ومن أمثلة عدم الدقة فى الاستنتاج كذلك ، تعليل الكتاب لعدم التفات الأندلسيين لشعر الطبيعة قبل القرن الرابع ، بأنهم كانوا مشغولين بالعصبيات والحروب (٢) ؛ لأنه يمكن أن يقال : ولماذا لم تشغلهم العصبيات والحروب عن الشعر المقول فى غير الطبيعة ؛ كشعر الفخر والحماسة والغزل مثلا ؟ وربما كان الصواب هو أن الفترة الزمنية كانت فترة فروسية ، وكانت أهم خصائص الفارس هى القوة فى الحرب والضعف فى الحب . لذلك كثر شعر الحماسة والفخر من جانب وشعر الحب والغزل من جانب آخر ؛ لأن الفترة كانت فترة فروسية .. ومن الأحكام غير الدقيقة أيضا ، اعتبار تضمين الأندلسيين لشىء من القرآن الكريم فى أشعارهم تقليدا للمشارقة (٣) ؛ وكأن القرآن الكريم كتاب المشارقة وحدهم ، وكان الأخذ منه وتجميل الشعر به وقف عليهم .. وأبعد من ذلك عن دقة الأحكام ، اعتبار استعمال الأندلسيين لبحور الشعر المعروفة وقوافيه تقليدا للمشارقة (٤) ؛ كأن هذه الموسيقى الشعرية ليست ملكا للغة العربية فى كل زمان ومكان .. ومن أظهر ما يبدو فى الكتاب من عدم الدقة فى الاستنتاج ، استشهاده على تقليد الأندلسيين للمشارقة بقصيدة لابن هانىء تشبه قصيدة المتنبى فى « ان القصيدتين من الطويل وكليهما فى مدح ملك »(٥) نعم قد يكون ابن هانىء قد قلد المتنبى ، ولكن فى أفكار معينة وطريقة أداء خاصة ؛ أما كون القصيدتين من الطويل وكونهما فى مدح ملك ، فمما لا يقال فى بيان التقليد أو حتى فى بيان التشابه بين عملين شعريين ..

ومن الأحكام الخاطئة قول الكتاب « ان المشارقة لم يخصوا الطبيعة بحديث ، أو لم يبدأوا قصائدهم بها أو بالخمر » (٦) ؛ فكل من له علم بتاريخ الأدب يعرف أن المشارقة قد خصوا الطبيعة بأحاديث ، وفى مقدمة هؤلاء الصنوبرى ؛ كما يعرف أن المشارقة قد ابتكروا ابتداء القصائد بالحديث عن الخمر ، وزعيم تلك الحركة هو أبو نواس .

ومن الأحكام الخطيرة غير المبررة ، قول الكتاب : « ويمكن ان نقرر مطمئنين أن الشاعر عبد الجبار بن حمديس هو أعظم وصاف الأندلس » وأنه « يفوق شعراء الأندلس قاطبة » وذلك لأنه فى نظر المؤلف كان مشرق الديباجة ، بارع التنسيق ، محكم السبك ، واسع الخيال ، مفتنا فى معانيه (٧) . فالحكم على شاعر بأنه أشعر امة فى أجيالها المختلفة ، حكم فى منتهى الخطورة ، وينبغى لمن يتصدى له أن يكون قد أحاط تماما بكل شعر هذه الأمة فى جميع أجيالها ، ودرسه ووازن بين نصوصه بما يهيىء لمثل هذا الحكم ، كما ينبغى لمن يتصدى لمثل هذا الحكم ، أن يتبع حكمه بمبررات فنية مقنعة ، سوف تكون من غير شك غير تلك المبررات التى ذكرها الكتاب لتفضيل ابن حمديس على كل شعراء الأندلس .

ومن أمثلة الأحكام المتناقضة ، حكم الكتاب لابن عبد ربه بأنه زعيم شعراء الأندلس (٨) ، وذلك بعد الحكم السابق لابن حمديس بانه يفوق شعراء الأندلس قاطبة .

ومن أمثلة هذا التناقض كذلك ، قول الكتاب أولا بأن الموشحات عربية خالصة ؛ حتى ليأخذ المؤلف على المستشرق « جارثيا جومث » قوله « بأن الأندلسيين أهدوا فن الموشحات الى العرب » ثم عودة الكتاب ثانيا الى القول بأنه « ربما كان البادىء بنظمها من هؤلاء المستعربين

(١) انظر : الكتاب ص ٣٣ .
(٢) انظر : الكتاب ص ٤٧ .
(٣) انظر : الكتاب ص ٥٠ .
(٤) انظر : الكتاب ص ٦٠ .
(٥) انظر : الكتاب ص ٥٥ .

(٦) انظر : الكتاب ص ٨١ .
(٧) انظر : الكتاب ص ٢٣٤ .
(٨) انظر : الكتاب ص ٢٢٤ ، ٢٥٢ .

من الأسبان ، أو من مولدى العرب » (١) ففى هذا تسليم بعدم العروبة الخالصة للموشحات ، الأمر الذى اشتد تحمس الكتاب له من قبل .

ومن التناقض فى الأحكام أيضا ، ذهاب الكتاب مرة الى القول بأن الأندلسيين قد عرفوا الحب الروحى كما عرفوا الحب المادى ، ثم ذهابه مرة أخرى الى القول بأنه « يظهر أن الحب عند الأندلسيين كان ماديا الى حد بعيد أو أنه كان طارئا » (٢) . وذلك الرأى الأخير الذى يناقض الرأى الأول قد تورط فيه الكتاب ، وليفسر لماذا لم يظهر بين الأندلسيين محبون مدلهون كالمجنون وأمثاله ؟ وقد فات المؤلف أن هذا اللون من الحب الجنونى العذرى لم يظهر الا فى بيئة خاصة توفرت لها شروط معينة ؛ اجتماعية ودينية وعرفية ؛ وحيث لم تتوفر هذه الشروط لم يظهر هذا اللون من الحب حتى فى المشرق نفسه .

على أن من أعجب ما تضمنه الكتاب من أحكام قوله فى التعقيب على شعر الحب عند أهل الأندلس « وبطبيعة الحال لم يكن الشعراء كلهم صادقين فيما حدثوا عن الحب ، وأكبر الظن أن الملوك كانوا صادقين حين وهبوا ملكهم لمن يحبون ، أما بقية الشعراء فكان فيهم الصادق الصبابة ومنهم الذى يقول فى العشق ويعلم أنه كاذب » (٣) والحق أننا لا ندرى لماذا رجح المؤلف صدق الملوك ، وجعل الصدق والكذب من حظ بقية عباد الله !! .

بقيت بعض الملاحظات المتعلقة بالتاريخ واللغة ونحوهما . ومن أمثلة ما زل فيه قلم المؤلف من المسائل التاريخية ، اعتبار الأمير عبد الله ابنا لعبد الرحمن الأوسط (٤) . بينما الصواب انه ابن للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط الذى هو جد عبد الله .

---

(١) انظر : الكتاب ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ .

(٢) انظر : الكتاب ص ٣٣٢ ، ٣١٣ .

(٣) انظر : الكتاب ص ٣١٤ .

(٤) انظر : الكتاب ص ٣٥٢ .

ومن أمثلة هذه الزلات التاريخية أيضا ، اعتبار صاعد البغدادى شاعرا أندلسيا (٥) . بينما هو مشرقى وافد على الأندلس ليعمل عند المنصور بن أبى عامر ، كما وفد القالى ليخدم عبد الرحمن الناصر من قبل .

ومن الزلات التاريخية كذلك ، قول المؤلف عن أبيات الحاجب بن مغيث انها قيلت فى رثاء هشام وتهنئة عبد الرحمن الأوسط (٦) . والصواب انها قيلت فى رثاء الحكم بن هشام وليست فى هشام نفسه .

أما ما زل فيه القلم من الأخطاء اللغوية ، فأكثرها راجع الى عدم الدقة فى تحقيق النصوص وضبطها ، وربما كان بعضها من هنات المطبعة . ومع ذلك فلا بأس بأن نشير الى بعضها على سبيل المثال . فمنها بيت عبد الرحمن الداخل الذى جاء ضمن قطعته المشهورة فى مناجاة النخلة ، فقد جاء فى الكتاب هكذا :

سقتك غوادى الزمن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالوبل (٧)

والصواب :سقتك غوادى المزن .

ومنها كذلك هذا البيت من أرجوزة الداخل ، حيث جاء هكذا :

ان العلا شدت بهم طارق
فاركب اليها شبح المضايق (٨)

والصواب : فاركب اليها ثبج المضايق .

ومنها أيضا بيت للحكم الربضى من قصيدته الحماسية حيث جاء هكذا :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا
وقدما لأمت الشعث مذ كان يافعا (٩)

والصواب رأبت (بالباء) .

ومنها بيت من قصيدة رثاء لمقدم بن معافى ، قد جاء هكذا :

---

(٥) انظر : الكتاب ص ٥٢ ، ١٥٣ .

(٦) انظر : الكتاب ص ٢٣ .

(٧) انظر : الكتاب ص ١٠ .

(٨) انظر : الكتاب ص ١١ .

(٩) انظر : الكتاب ص ١٢ .

لا اخضرت الأرض ولا أوراق العـود أشرقت الشمس (١) .

والصواب : ولا اورق العود .

ومنها بيت للغزال متغزلا فى زوجة ملك الروم ، قد جاء هكذا :

يا نـود يا رود القـلوب التى
تطلع من أزرارها الكوكبا (٢)

والصواب يا تود (بالتـاء) لأن المخاطبة هى « تيودورا » امرأة « تيوفيليس » فتكون « تود » هى الصيغة المرخمة للاسم . وربمـا كان عند المؤلف أن بعض المصادر التى نقل عنها قد أوردت بعض الكلمات السابقة بصورتها التى جاءت عليها فى كتـابه . ولـكن بعض التحقيقات قد أوضحت وجه الصواب فيما مضى من نصوص ، كتحقيق الأسـتاذ ليفى بروڤنسال لاسم « تود » السالف الذكر ، وكان ينبغى أن يفيد منه المؤلف .

وبعـد . فكما قلت من قبل : ان وراء هـذا الكتاب جهدا كبيرا واخلاصا صادقا ومحاولة جادة وما أظن أن ما قدمت من ملاحظات سوف ينقص شيئا من الجهد الكبير أو الاخلاص الصادق ، وان كنت أرجو أن تكون تلك الملاحظات تحية للمحاولة وعونا لها فى تحقيق ما اتجهت اليـه من نبيل الهدف .

الدكتور احمد هيكل

(١) انظر : الكتاب ص ٣٣ .

(٢) انظر : الكتاب ص ٣٠ .

سطور من كتاب .....

« ومهما يكن من شيء ، فلم يكن يتاح لنا ياولدى من فرص المشاركة فى صنع حياتنا مثل ما يتاح لكم اليوم ، ولم يكن ذلك شيئا خاصـا بأبيك أو بأسرتنا وحدها ، ولكنها كانت طبيعة المجتمع على أيامنا . وروح العصر الذى عشنا فيه » .

... اليك ياولدى

ماهى الوراثة

تأليف : ريتشارد جولدشميدت

ترجمة : د . مصطفى طلبه

مراجعة : د . جعفر الملاح

فى صفحة (١١٢) من الترجمة العربية لهذا الكتاب قصة طريفة توضح أثر الوراثة فى حياتنا العادية ، آثرنا ان نبدأ بها تعليقنا على هذا الكتاب والقصـــة تقول ان قضايا الأبوة شائعة فى بلاد النرويج حيث يحق للابن غير الشرعى أن ينـال اسم والده وأملاكه . وفى احـدى هذه القضايا أنكر المدعو أ . هانز أبوة طفله من هـ . كارين ، وحين فشلت جميع المناقشات الأخرى دفعت الأم بأن أصابع وليدها تنقصها عقلة وأن أ . هانز به نفس هـذا الشذوذ تماما ، فدعت المحكمة احد علماء الوراثة للفصل فى هذا النزاع ، وتم اثبات تطابق هذا الشذوذ فى الوالد المفترض والابن الذى عليـه النزاع بصورة بأشعة اكس . كما اتضح للمحكمة أن للأم وجميع أقاربها أصابع عادية ، وأن تلك الصفة الشـاذة لم تشاهد اطلاقا بين الجيران ، ومن ثم أصبح اعتبار شخص آخر له نفس تلك الصفة النادرة أبا لذلك الطفل – أمرا معدوما تقريبـــا . فحكمت المحكمة بأبوة هانز للطفل المتنازع عليه .

وتذكرنا هذه القضية بقضية أخرى بطلها رجل أبيض بنى بامرأة شـقراء ولدت له طفلا أسود فدفع بعـــدم بنوته للطفل وقضى علماء الوراثة بجواز هذه البنوة ! .

ويقول علماء الوراثة : ان قصر الأصـــابع فى الحالة الأولى من الصفات « المندلية » (نسبة الى جريجور مندل القسيس النمسوى الذى اكتشف قوانين الوراثة) التى تم تحليلها فى عدة سلالات من النسب ، كما أن اللون الأسود للطفل فى الحالة الثانية قد يحدث نتيجة ما يسمى « بالطفرة » !

الناشر : دار النهضة العربية
بالاشتراك مع مشروع الالف كتاب
عدد الصفحات ٣٥٥ ص ١٧ × ٢٤ سم
الثمن ٢٣,٥ قرشا

ومن منـــا لم يهتم فى فترة من فترات حياته بمسائل الوراثة ؟ والحق أن للناس جميعا شغفا فطريا يدفعهم الى التفرس فى وجه الطفل حديث الولادة أو الصبى ليتبينوا مقـدار ما بينه وبين أبويه من شبه . . وكم من الصفات ورثها عن أمه وكم منها ورثهـــا عن أبيه . ومن تلك الصفات الشائعة : لون العينين ، والشعر وشـكل الأنف والأصابع والأطراف . وفى كثير من الأحيـــان يستحيل الحكم ، كما قد لا يبـــدو على الأشقاء والشقيقات فى العائلة الواحدة أية صفة مشتركة

والواقع أن بعض الصفات التى يتميز بها الآباء أحدهما أو كلاهما قد تظهر على الأبناء ، والأخرى قد لا تظهر الا على أفراد من نسلهما فى أجيال متعاقبة ، كما أن دراسة هذه الصفات قد تبدو لأول وهلة بالغة التعقيد .

ما هى الوراثة اذن ؟ :

والآن يحق لنـا أن نتساءل عما هى الوراثة ؟ ويمكننا ان نجيب ببساطة بأن « علم الوراثة » هو العلم الذى يبحث فى توارث الصـــفات فى الكائنات الحية جميعا بما فيها الانسان . بيد أن هذا التعريف يظل سطحيا ما لم نفهم المقصود من كلمة « الصفات » ، ونفهم آلية هذه العملية ،

أى عملية الوراثة نفسها ، وكيف تنتقل الصفات من جيل الى جيل .

ان علم الوراثة علم حديث السن نسبيا لا يزيد عمره على خمسة وستين عاما ، وهى الفترة التى حددها العلماء بأول هذا القرن ، أى بعام ١٩٠٠ الميلادى ، حين توصل علماء مثل كورنز فى ألمانيا ودى فريز فى هولندا وتشرمارك فى النمسا الى اعادة اكتشاف القوانين التى كان مندل قد توصل اليها من قبل منذ عام ١٨٦٥ ولم تسترع انتباه أحد على الاطلاق حتى بعد وفاة مندل .

وقد عرفت هذه القوانين — ولا تزال تعرف — بقوانين « مندل » اعترافا بفضل هذا العالم الذى عكف سنين طويلة على تهجين سلالات من نبات «البسلة» فى حديقة الدير ببلدة برون‌النمسوية ، ودرس توارث صفات معينة كالطول والقصر واللون وشكل الحبة فى الثمرة بدقة كبيرة وفى صبر وأناة . كما كانت له قدرة فائقة على تحليل النتائج واستنباط القوانين :

ويجرى تحليل مندل المنطقى لنتائج تجاربه على الوجه الآتى :

«ينتج الكائن عن اتحاد الخلايا الجنسية للأنثى والذكر فى عملية الاخصاب » (ونذكر هنا أن الأحداث الفعلية للاخصاب كانت غير معروفة اطلاقا فى عصر مندل) فلابد اذن أن تحوى الخلايا الجنسية شيئا ما يكون مسئولا عن انتاج الصفات الوراثية ، وهى فى مثالنا لون الزهرة ويمكن تسمية هذا الشىء بالعامل الوراثى (ويطلق عليه فى الوقت الحاضر اسم « الجين » Gene فاذا كان الكائن صادق التربية لصفة ما (كاللون الأبيض أو الأحمر فى زهور البسلة مثلا) فان الخلايا الجنسية لكل من الوالدين لابد ان تحتوى على نفس العامل الوراثى أو الجين (ص ٨٩ فى الترجمة العربية) .

ويضيف المؤلف بأن « قانون نقاء الأمشاج هذا كان أول اكتشاف عظيم لمندل وأصبح أحد العمد الأساسية للوراثة » .

كما توصل مندل الى تمييز الصفات أو (الجينات) السائدة من الصفات « المتنحية » وبين نسبة ظهور هذه الصفات بين أفراد الأجيال المتعاقبة بمعادلات حسابية ، كما أجرى مندل أيضا تجارب جمع فيها بين أكثر من صفتين ووضح نسبة ظهورها فى الأجيال المتعاقبة — وخرج من كل ذلك بقوانين الوراثة المعروفة . وهى القوانين التى أمكن تطبيقها أيضا على الانسان ، فيما بعد ، بالنسبة لكثير من الصفات : كلون الجلد والشعر والعينين ، وهيئة الجسم وحجمه وشكل الأذنين والأنف والأسنان ، وبالنسبة أيضا للصفات البيوكيميائية كالقدرة أو عدم القدرة على انتاج فيتامينات معينة والخواص الفسيولوجية مثل القابلية للاصابة بأمراض معينة أو ظهور حالات مرضية بعينها وكذلك فصائل الدم الانسانى . بل أصبح فى الامكان كتابة مجلدات كاملة فى حصر الصفات التى تتبع قوانين مندل فى الانسان والحيوان والطيور والقواقع والنباتات على اختلاف أنواعها حتى فى أبسط الكائنات الحية كالبكتريا والفيروس .

وجدير بالذكر أن علم الخلية المعروف باسم « السيتولوجيا » لم يكن متقدما فى عصر مندل . بل كان مندل نفسه يجهل تماما كل شىء عن انقسام الخلية أو عمليات الاخصاب أو (الكروموسومات) الصبغيات ، أو الانقسام الاختزالى . وحين تم الكشف عن هذه الأمور وجد العلماء أنها تخدم قوانين مندل تماما . وتعاونت « المندلية » مع « علم الخلية » تعاونا وثيقا كان مدعاة لنشأة علم « الوراثة السيتولوجية » أو دراسة الأساس الخلوى للوراثة . ويمكن ذكر أساس هذا العلم الجديد فى جملة واحدة وهى — على حد تعبير جولد شميدت « يقع كل زوج من الأليلات* المندلية فى نقطتين توأمتين محددتين فى زوج من الصبغيات المتماثلة » . وعلى ذلك « فانه مهما حدث من توزيع للصبغيات سواء كان عاديا أم شاذا ، فان

* الأليلات فى الوراثة المندلية هى زوج من الجينات المندلية توجد فى نفس الموضع على زوج من الصبغيات (الكروموسومات) المتشابهة .

ذلك ينعكس على توزيع الصفات الموروثة فى السلف ، وكل ما يحدث للصبغيات يتضح فى أحداث موازية تماما تتعلق بالصفات الموروثة » (ص ١٣٨) .

والآن يمكننا أن نفسر كيف تنتقل الصفات على ضوء الوراثة السيتولوجية الحديثة فنقول ان الصبغيات أو الكروموسومات الموجودة داخل نواة الخلية هى فى العادة أجسام خيطية الشكل كما تظهر تحت العدسات المكبرة للميكرسكوب ، وكل صبغى منها يحمل عددا كبيرا من الجينات (أو حاملات صفات الوراثة) . ولما كانت هذه الصبغيات تنشق طوليا أثناء عملية انقسام الخلية ، فقد افترض العلماء أن الجينات يجب أن تكون مرتبة فى صف بطول الصبغى نفسه ، وذلك حتى يسهل انقسامها أو تكاثرها فى وقت واحد وبالتساوى حين يزدوج الصبغى . وقد استعان العلماء على تجاربهم الوراثية بكائنات حية تتميز بخاصتين هامتين ، أولاهما : أن أعمار هذه الكائنات قصيرة بمعنى أنه يمكن الحصول منها على أجيال متعاقبة فى فترة وجيزة والثانية . أن حجم الصبغيات فيها كبير حتى ليمكن دراسة توزيع الصفات (الجينات) المختلفة على طول الصبغى نفسه . وحققت الحشرة المعروفة باسم ذبابة الفاكهة (أو الدروسوفيلا باللغة العلمية اللاتينية) هذين الفرضين ، ومن ثم كان لهذه الذبابة شأن كبير فى الدراسات الوراثية الحديثة فى معامل العلماء .

كما توصل علماء الوراثة السيتولوجية الى اماطة اللثام عن حقائق جديدة أو شذوذ فى سلوك الصبغيات أو الجينات ، ومن ذلك الخاصية المعروفة بتضاعف الكروموسومات Polyploidy أو العبور Crossing over ، وهو تبادل أجزاء بين صبغيين متماثلين ، وأثر ذلك على انتقال الصفات . بل أمكن فى بعض الأحوال رسم خرائط لصبغيات بأكملها حددت عليها مواضع الجينات المختلفة بدقة .

وجدير بالذكر أنه يجب التمييز بين الصفات الوراثية والصفات المكتسبة فالأولى تورث والثانية لا تورث . ومن أمثلة الصفات المكتسبة تلك التجارب التى أجريت على الفئران التى بترت ذيولها على مدى أجيال طويلة فلم ينتج نسلها أفرادا عديمة الذيل . كما لمح المؤلف فى مواضع متفرقة للخلاف العقائدى بين الشرق والغرب حول أثر البيئة على الوراثة .

وجدير بالذكر أن الوراثة السوفيتية تنكر نظرية الجين ، وتعطى اهمية خاصة لأثر البيئة على الوراثة ، الأمر الذى يعيد الى الأذهان آراء لامارك فى صورة حديثة . وليس هنا مجال الخوض فى هذا الموضوع ، ومن شاء من القراء الاستزادة فانا نحيله الى كتابنا الذى صدر فى سلسلة المكتبة الثقافية بعنوان « قصة التطور » وهو الكتاب الرابع من السلسلة المذكورة ، وفيه يجد القارىء أيضا شرحنا مستفيضا لمعنى الطفرة وعرضا للعلاقة بين الوراثة والتطور . .

ولئن كنا قد بدأنا الكلام عن أهمية الوراثة فى حياة الانسان العادية ، فلا يجب أن نغفل الآثار التطبيقية الأخرى للوراثة فى حياتنا العملية . ولم يغفل مؤلف الكتاب هذا الموضوع بل وضح فى أكثر من فصل من فصوله أهمية الوراثة فى استنباط سلالات جديدة من القمح والمحاصيل الأخرى تقاوم الأمراض أو تتفوق على غيرها بوفرة المحصول . وينطبق هذا الأمر أيضا على حيوانات التربية . وعلى ذلك فعلم الوراثة يخدم أيضا التنمية الاقتصادية عن طريق التوسع الرأسى فى محاصيل الحقل وحيواناته ، بل أمكن فى أحوال كثيرة استنباط سلالات من النباتات تقاوم عوامل البيئة القاسية .

ويقع الكتاب الذى نتناوله هنا فى اثنى عشر فصلا هى على الترتيب : الخواص الوراثية وغير الوراثية ـ خلايا الجنس والاخصاب ـ مبادىء مندلية ـ اضافة الى المبادىء المندلية ـ الصبغيات والمندلية ـ الارتباط ـ الطفرة ـ الصبغيات الجنسية والوراثة المرتبطة بالجنس ـ اشتراك الجينات ـ العوامل المجمعة المتعددة ـ

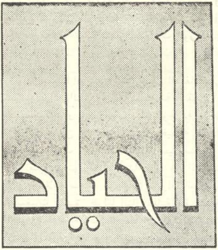
الأليلات المتعددة – لمحة عن الحقائق العملية ومشكلات الوراثة . وفى هذا الفصل الأخير تكلم المؤلف بسرعة عن تحديد الجنس ، ولو لم يتوصل العلماء الى راى قاطع فيه فان المؤلف يبرز أهمية الهرمونات الجنسية بالاشتراك مع جينات الجنس . كما تكلم فى هذا الفصل أيضا عما يسمى بالوراثة الفسيولوجية والوراثة البيوكيميائية وعن الوراثة والتطور فى آخر الكتاب . وفى هذا الصدد يخرج برأى مؤداه أن « الآراء الكلاسيكية لداروين التى تعتبر بأن التطور هو تجمع تغيرات وراثية ضئيلة يتفق فى مجموعه مع الأبحاث الوراثية الحديثة » .

بقى لنا راى لا نود أن نختم هذا المقال دون أن نوضحه وهو أن المؤلف ذكر فى تقديمه للكتاب ما يفيد بأن مادته « عرض موجز سهل القراءة عن الحقائق الأساسية لعلم الوراثة ، تيسر لغير المتخصص فى علم الأحياء فهم دقائق العلم » . وفى موضع آخر نجد ما يفيد بأن هذا الكتاب « يستطيع قراءته وفهمه والتمتع به أولئك الذين تنقصهم الخبرة العلمية .. » .

والواقع غير هذا تماما ، فالكتاب محشو بالمصطلحات العلمية والقوانين التى لا يتيسر فهمها أو هضمها الا لطلاب البيولوجيا على المستوى الجامعى ، سواء فى الجامعات العربية أو الغربية على حد سواء .

اما عن المترجم الدكتور طلبة فأستاذ جليل من أساتذة جامعة القاهرة وكذلك المراجع الدكتور الملاح فهو أستاذ الوراثة وعميد كلية الزراعة بجامعة الاسكندرية فى الوقت الحاضر ، وقد بذلا مجهودا محمودا فى ترجمة المصطلحات العربية ، وفى وضع كشاف فى آخر الكتاب ، وان فاتتهما بعض أخطاء مطبعية مثل كلمة « الفرد » وصحتها « النرد » التى تكررت خطأ فى أكثر من صفحة ، وكذلك بعض أخطاء فى الأسماء المكتوبة بحروف أفرنجية ، وهذه وتلك لا تقلل من قيمة عملهما بحال .

الدكتور أنور عبد العليم



إعداد
لورنس مارتن

تعريب وتعليق
خيرى حمّاد

الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر .
عدد الصفحات ٣٥٨ ص ١٧ × ٢٤سم .
الثمن ٥٠ قرشا

الحياد وعدم الانحياز

الدول الحديثة فى مجالات الشئون العالمية

فى الوقت الذى يسعى فيه هذا العدد من مجلة « الكتاب العربى » بين أيدى القراء يكون مؤتمر دول عدم الانحياز الذى بدأ جلساته فى القاهرة منذ الخامس من هذا الشهر - أكتوبر ١٩٦٤ - قد انتهى أو هو على وشك أن ينتهى من جلساته .

وقد وجه رئيس الجمهورية العربية المتحدة باعتباره رئيس الدولة المضيفة الدعوة الى ثمان وخمسين دولة هى الدول التى وافقت حتى العاشر من سبتمبر ١٩٦٤ على الاشتراك فى المؤتمر الكبير .

واذا قارنا بين عدد الدول التى حضرت مؤتمر عدم الانحياز وعدد الدول التى حضرت مؤتمر سان فرنسسكو عام ١٩٤٥ ووقعت ميثاق الأمم المتحدة لأول مرة لتبين لنا أن عدد دول عدم الانحياز يزيد كثيرا عن عدد أعضاء الأمم المتحدة عند بدايتها اذ كان هذا العدد لايتجاوز خمسين دولة .

واذا قدرنا أن دول مؤتمر عدم الانحياز جميعا هم أعضاء فى المنظمة الدولية وأنهم بذلك يمثلون أكثر من نصف عدد أعضائها الحاليين لتبين لنا بذلك مدى القوة الضخمة التى تمثلها دول عدم الانحياز ومدى أهميتها فى موازين القوى الدولية .

ونظرا لهذه الأهمية فقد عنيت الدول الكبرى فى كل من المعسكرين المتصارعين بدراسة سياسة دول عدم الانحياز ومحاولة تفهمها حتى تبنى تلك الدول الكبرى سياساتها تجاه دول عدم الانحياز على ضوء من تلك الدراسات التى تقوم بها .

ولكن هذه الدراسات ليست دائما - للأسف الشديد - دراسات موضوعية وانما هى دراسات تصدر عن وجهة نظر معينة وعن وضع فكرى معين أقل ما يقال فيه انه وضع لا يتصف بالحياد وانما يتصف بالانحياز تجاه دول عدم الانحياز .

والكتاب الذى نعرض له الآن مثل واضح من أمثلة هذه الدراسات التى لاتتصف فى جملتها بالحيدة والموضوعية وانما تتصف فى أغلبها بالانحياز وعدم الحيادية .

وكتاب « الحياد وعدم الانحياز : الدول الحديثة فى مجالات الشئون العالمية » هو العدد رقم ٣٥١ من سلسلة كتب سياسية التى تصدرها الدار القومية للطباعة والنشر . وقد صدر الكتاب فى مايو من هذا العام - ١٩٦٤ - وقام بترجمته والتعليق على بعض المواضع فيه الأستاذ خيرى حماد .

والأستاذ خيرى حماد رجل غزير فى انتاجه المترجم حتى انه ليقوم بعبء فى هذا الباب يتعذر معه أن يصدق الانسان العادى أنه يقوم به منفردا .

والانتاج الغزير – أصيلا أو مترجما – أمر مطلوب فى ذاته ونحن نبنى نهضتنا الثقافية فضلا عن أن يكون الانتاج المترجم فى الأصل انتاجا جيدا . والحق ان الأستاذ خيرى حماد رغم غزارة انتاجه فانه لا يسف مطلقا فى اختيار الكتب التى يترجمها وانما هو ينتقى منها الدسم المفيد . ويكفى أن نذكر هذا الكتاب الذى نعرض له ونذكر الى جواره فى هذا الموسم . «الفتوحات العربية الكبرى» وأخيرا « رأى فى الثورات » الذى صدر فى بداية شهر سبتمبر الماضى . وكلها فضلا عن أنها كتب ضخمة فهى كتب قيمة .

ولكن الانتاج الغزير لا يخلو فى نفس الوقت من بعض المثالب خاصة اذا توالى فى وقت قصير . وتتعلق هذه المثالب فى أغلبها بالشكل قبل أن تتعلق بالموضوع ولعل أوضح مثل لها كثرة الأخطاء المطبعية وبعض الأخطاء اللغوية هنا وهناك . الا أن ذلك لا يجحد مطلقا الفضل الكبير الذى قدمه الأستاذ خيرى حماد للعربية وقرائها بهذه الترجمات الكثيرة القيمة .

والكتاب الذى نحاول تقديمه اليوم للقراء عبارة عن مجموعة أبحاث أو كتيبات صغيرة وليس كتابا واحدا تجمع بينه وحدة الموضوع ووحدة الكاتب . فهو عبارة عن موضوعات متعددة لكتاب متعددين وان كانت كلها تدور حول موضوع أساسى واحد هو « الدول الحديثة فى مجالات الشئون العالمية » .

ويضم الكتاب أحد عشر بحثا لأحد عشر كاتبا يجمع بينهم أنهم من المهتمين بالدراسات الدولية والذين ينظرون اليها من وجهة نظر غربية أو من وجهة نظر الولايات المتحدة بالذات على الأدق .

وقد وصف الأستاذ أرنولد وولفرز مدير مركز واشنطن للبحوث السياسية الأبحاث التى تضمنها الكتاب بأنها نبعت « من مجالات معينة لاهتمام كتابها فى المشاكل المختلفة التى تعرضها الدول اللامنحازة ولذا فهى لا تؤلف فى حد ذاتها عرضا وافيا لمشكلة الحياد بكاملها ولكنها مع ذلك تقع فى مجموعتين تقريبا أولاهما وهى الأقدم من الناحية الزمنية تتناول طبيعة الدول الجديدة وسلوكها فى ميدان السياسة الخارجية وثانيتها وهى الأحدث وتتناول بصورة مباشرة نتائج هذا السلوك وآثارها على سياسة أمريكا الخارجية »

وقد حرص الأستاذ المعرب على أن يقدم لمباحث الكتاب بتقدمة موجزة ودقيقة حاول فيها أن يوضح التفرقة بين معنى « الحياد » فى صورته التقليدية « والحياد الايجابى » فى صورته التى تنتهجها دول عدم الانحياز وكيف أن الحياد القديم كان حيادا سلبيا قصاراه دفع الضرر عن الدولة المحايدة على أن الحياد الايجابى هو «موقف» معين ازاء السياسات الدولية وما يكتنف العالم من صراع ، موقف يستهدف التأثير على هذه السياسات ويحاول أن يخفف من حدة الصراع الدولى وأن يجنب العالم كارثة حرب عالمية ثالثة تأتى على الأخضر واليابس .

واذا حاولنا بعد ذلك أن نعرض لبحوث الكتاب كل منها على حدة فانه قد يبدو من المحال أن نحقق هذا الغرض ونعرض لها جميعا فى هذا المقال فالبحوث طويلة وكل منها ينير نقاطا عديدة: تختلف حولها وجهات النظر .

ولذلك سنكتفى هنا بالتعرض لبعض الأبحاث دون البعض الآخر مراعين مع ذلك أن نلم بالخطوط الرئيسية التى وردت فى أبحاث الكتاب جميعا .

والفكرة المتحيزة التى تسيطر على الغالبية العظمى من الباحثين فى هذا الكتاب حول موضوع الحياد الايجابى بل والتى تسيطر أيضا على لورنس مارتن الذى جمع الأبحاث وأعدها للنشر هى أن انتهاج دول عدم الانحياز للحياد الايجابى ليس أمرا مبنيا على فلسفة معينة ووجهة نظر ثابتة ازاء أحداث العالم وما يكتنفه وما يتقاسمه من معسكرات وانما يرى هؤلاء الكتاب أن سلك الحياد الايجابى ليس الا نوعا من الانتهازية فى السياسة الدولية وأنه من ناحية أخرى تعبير عن

عدم الاستقرار الداخلي للدول التي تسلك هذا المسلك ورغبة منها في أن تصرف شعوبها عما تعانيه في الداخل بمحاولة الظهور بمظهر الذي يتخذ موقفا ازاء السياسات العالمية .

واذا كان لورنس مارتن هو الذي جمع أبحاث الكتاب فانه هو نفسه قد ساهم فيها ببحث معنون « الرأي المحافظ في الدول الحديثة » وهو مقال أقل ما يوصف به أنه مضحك لا يمكن أن تنتمي الأفكار الواردة فيه الى هذه الفترة من القرن العشرين . والدفاع الوحيد الذي قد يقوله لورنس مارتن عن نفسه ازاء هذا المقال أنه لا يعبر به عن رأيه وانما يعبر به عن رأي المحافظين الاستعماريين بالنسبة للدول الحديثة كما يتبين من عنوان المقال على أي حال . والمقال يدور حول النقاط الأساسية الآتية :

١ ـ ايمانه بالاستعمار وبالحضارة الغربية بغير حدود

٢ ـ عدم ايمانه بحرية الشعوب ولا بحقها في تقرير مصيرها

٣ ـ عدم ايمانه بسياسة الحياد .

٤ ـ شك واضح تجاه الأمم المتحدة .

هذه هي المحاور التي يدور حولها رأي المحافظين بالنسبة للدول الحديثة ـ كما عرضها لورنس مارتن ـ وهي محاور لا تحتاج الى مناقشة وهي لا تستحق هذه المناقشة لأنها محاور تدعو الى عدم ايمان بكل القيم التي اتجهت اليها حضارة الانسان والتي ضحت من أجلها الانسانية بآلاف الشهداء ان لم نقل بملايين الشهداء على مر الأجيال وتعاقب العصور .

واذا كان هذا المقال يصور قمة التطرف أو الأغراض في الكتاب الذي نعرضه فقد ذهبت بعض الأبحاث الأكثر اعتدالا في تطرفها الى أن الحياد الايجابي لايعني سياسة محددة المعالم وأنه مجرد استجابات عاطفية لأحداث الساعة » وقد يعني عدم الالتزام في بعض الحالات مجرد عدم وجود سلطة قادرة على اتخاذ موقف الالتزام » كما قد يعني في حالات أخرى « مجرد الوهم » وأنه « لما كانت السياسة الخارجية سببا من أسباب توطيد الوجود القومي للبلاد الحديثة فان اللانحياز يعرض احتمالات جذابة للغاية » واذا قرأنا آراء هؤلاء الكتاب وتذكرنا أن ألد أعداء الحياد الايجابي جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا الأسبق كان يصف الحياد الايجابي بأنه « مفهوم لا أخلاقي وناتج عن قصر النظر » لاستطعنا أن نلمس الاتجاه العام الذي يسيطر على الدبلوماسية الأمريكية تجاه دول عدم الانحياز .

لقد كان اتجاه دالاس واضحا وغبيا في نفس الوقت : اذا لم تكن معي فأنا عليك !! ولعل سير التاريخ في هذه السنوات القليلة التي انقضت منذ بدأت سياسة الحياد الايجابي تظهر على مسرح السياسة العالمية تثبت أي الموقفين هو اللاأخلاقي وهو الناتج عن قصر النظر : الموقف الذي يدفع العالم الى حافة الهاوية أم الموقف الذي يحاول أن يبعد العالم عن الحرب باردة كانت أم ساخنة .

وليست كل مقالات الكتاب على أي حال بهذا الاغراق في الأغراض وعدم الموضوعية فمقال « بناء الدولة يحدد للدول الجديدة سياستها الخارجية » يتضمن محاولة لشيء من الدراسة الجدية ومع ذلك فان صاحب المقال لايجد غضاضة علمية في أن يقول « ان معاداة الاستعمار مزاج بل حالة عقلية » .

لا شبهة في أن معاداة الاستعمار تستند ـ الى جوار عشرات الأسباب الجدية الموضوعية ـ الى أسباب نفسية أيضا فالشعوب لا تستطيع أن تنسى ماضيها ولا أن تنسى مآسيها مع الاستعمار ولا تستطيع بالتالي أن تتجرد من المشاعر النفسية وهي تنظر الى دول الاستعمار القديم ولكن ذلك لا يعني مطلقا أن معاداة الاستعمار ليست الا مجرد مزاج أو حالة عقلية !!

ومن أكثر المقالات موضوعية في الكتاب كله ـ وان كانت بدورها لم تخل من هنات ـ مقال

« أزمة الكونغو » فقد حاول هذا المقال أن يدرس جذور الأزمة وأسبابها وحاول أن يملك مواقف الأطراف جميعا ازاءها سواء أكانت أطراف معتدلين أم محافظين أم متطرفين . وكاتب المقال هو الأستاذ روبرت جود وهو يسمى أزمة الكونجو باسم المشكلة « عقب الاستعمارية » ومن أحسن ما جاء فى هذا المقال بل لعلنى لا أتجاوز الحقيقة اذا قلت فى الكتاب كله ما قاله الأستاذ جود بصدد أزمة الكونجو « لقد عملت الحقيقة الاستعمارية على تقرير شكل الدول الحديثة عقب الاستعمارية وقدرتها على الحياة وهى التى خلقت عددا كبيرا من المشاكل التى تؤثر الآن على العلاقات بين هذه الدول من ناحية وعلى علاقاتها مع المجتمع الدولى من ناحية أخرى » .

ان مقال « أزمه الكونجو » فى هذا الكتاب من المقالات التى تستحق الدراسة وهو من المقالات التى أميل الى أن اعتقد أن صاحبها كتبها بروح طيبة وان كان ذلك لا يمنع أننا نختلف معه فى بعض أفكار المقال .

كذلك من المقالات التى تتسم بسمة الاعتدال والحيدة الى حدما – وان كانت بطبيعة الحال تعبر عن وجهة نظر كاتب أمريكى – مقال « دول اللانحياز والأمم المتحدة » بقلم فرانسيس او . ويلكوكس . فهذا المقال يبدو فيه محاولة جدية لفهم دور دول عدم الانحياز وهدفها وايمان هذه الدول بالأمم المتحدة . كما أن المقال فيه جزء احصائى مفيد للغاية ذلك هو الجزء الخاص باتجاهات الدول اللامنحازة فى التصويت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة . وبعد أن يورد الكاتب الأرقام الاحصائية فى هذا الصدد يقول : « ولا ريب فى أن هذه الارقام تعرض صورة مبسطة وواضحة عن مواقف الدول اللامنحازة ففى الحالات التى كان اقتراعها ينسجم مع اقتراع الاتحاد السوفييتى قد يكون من التضليل القول بأنها كانت تؤيد الاتحاد السوفييتى وقد يكون من الأصح القول بأن الاتحاد السوفييتى كان يسارع دائما الى اهتبال الغرض لكسب ود الدول اللامنحازة ولذا كان يميل الى الجانب الذى تقف فيه ليحقق عن طريقه بعض أهدافه السياسيه » .

وقد كان غير هذا الكاتب من الكتاب الأمريكيين المغرضين قمينا أن يستنتج من نتيجة الاحصاء نفسه أن دول عدم الانحياز جميعا تدور فى فلك الاتحاد السوفييتى ولكن موقف ويلكوكس واستنتاجاته تدل على الاعتدال ومحاولة الفهم الموضوعى .

ولكن مقال ويلكوكس – وبغير تحيز – فيه سقطات لا تقبل من كاتب معتدل مثله فهو مثلا يتكلم عن بعض الأعمال أو المواقف التى تدل – فى تقديره – على افتقار الدول اللامنحازة الى المسئولية ولا يجد صورة يوضح بها رأيه الا موقف الدول اللامنحازة ازاء اتحاد جنوب أفريقيا مع أن الانسانية كلها اذا قدرت مسئوليتها نحو نفسها ما كان لها أن تقف من جنوب أفريقيا غير موقف الدول اللامنحازة . ومع ذلك فان الكاتب يستدرك ويرد تهمة الافتقار الى المسئولية ويدفعها عن دول عدم الانحياز فى حالات كثيرة .

وأيا ما كان الرأى فى الاتجاهات التى تعكسها هذه الأبحاث فانها أبحاث جديرة بأن نقرأ لأنها تطلعنا على لون من ألوان التفكير نحن فى حاجة الى أن نعرفه والى أن نحدد موقفنا منه .

وفى نهاية هذا التعليق أشكر الاستاذ خيرى حماد وأشكر الدار القومية التى أتاحت لجمهور القراء أن يقرءوا هذا المجلد الضخم بهذه القروش الزهيدة .

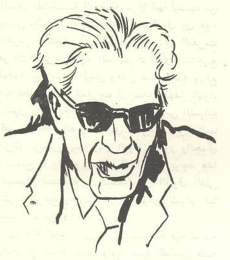
وتحية من الأعماق لمؤتمر دول عدم الانحياز الذى بدأ اجتماعاته فى القاهرة فى الخامس من هذا الشهر .

الدكتور يحيى الجمل

الناشر : دار العلم للملايين « بيروت »
عدد الصفحات ١٥٨ ص ١٤ × ٢٠ سم
الثمن ٢٠٠ قرشا لبنانيا

مرآة الضمير الحديث

تأليف : الدكتور طه حسين



نشرت الطبعة الأولى من الكتاب فى بيروت سنة ١٩٤٩ . ولهاتين الحقيقتين دلالتهما فقد كانت مصر فى سنة ١٩٤٩ قد اتضح لها بشكل لا يقبل الشك فساد الحياة السياسية والاجتماعية التى تعيش فى ظلها . حرب دفعت فيها ما دفعت من رجال ومال وخرجت منها بخفى حنين وما كان احراها الا تدخلها لو ان أمرها بيدها . ومأساة الاستعمار الكبرى فى الوطن العربى مأساة اسرائيل تعلن فى وقاحة اصرار الاستعمار على استغلال المنطقة ولكنها ، ويا للأسى ، تعلن أن فى الوطن العربى كله رجعية متعاونة مع الاستعمار تجعل الحرب حرب الاستعمار مزدوجة ضارية . ومصر تعانى فى كل ذلك من فساد الحكم واستغلال الحاكمين للشعب ألوانا من الشقاء المتصل . واذا المفكرون يرون فى هذه الأحوال رؤى مختلفة منهم من حلم بالثورة ومنهم من آمن بالمبادىء التى يجب أن يحارب فى سبيلها وكلهم قد برم بالحال وارداه الدافع الى ألم مرير ، ونظر فيما حوله فاذا النفوس ضعيفة واذا الشخصية ممسوخة واذا الناس يتسارعون الى ابتغاء المنفعة العاجلة الزائفة غير مبالين . « أن المسخ محنة عامة يمتحن الله بها هذا الوطن البائس فى كثير من بنيه » ص ٧٦ والى جانبهم قوم قد اتخموا ثراء وهم فى ثرائهم فى تيه من الغرور والأنانية . « أولئك الذين قد كثر عليهم المال حتى أثقلهم وألح عليهم الثراء حتى أسامهم فهم فى شغل بالمال والثراء حين يصبحون وحين يمسون وحين يغدون وحين يروحون لا يفرغون من العناية بالمال الا ليعنوا بالترف ، ولا يفرغون من العناية بالترف الا ليعنوا بالمال يحلمون بالمال فى أول الليل ويحلمون بالترف فى آخر الليل الخ » ص ١٠٦ .

وقد انتشر هذا الجو الخانق فى مصر كلها والدكتور طه حسين أستاذ فى الجامعة يرى الشر يزحف على الشباب فى شكل خنق للحرية وتزمت ممقوت فيكتب فى رسالة الحرية أولا يقول ان دون الحرية « دون ذلك اللوائح والقوانين والأمن والنظام والخوف والاغراق فى الخوف . نفوس الشباب المصريين أشبه شىء بهذا العفريت الذى حبسه نبى الله سليمان فى قمقم مطبق من النحاس الصفيق وختم عليه بخاتمه وأمر به فألقى فى أعماق البحر كما يحدثنا بذلك القاص فى ألف ليلة وليلة . وأجسام الشباب المصريين هى هذه

القماقم المطبقة الصفيقة . الا أنها ليست من نحاس وانما هى من لحم ودم . والفرق بين هذه النفوس السجينة فى قماقمها وبين ذلك العفريت هو أن العفريت وجد الصياد الذى استخرج قمقمه من اعماق البحر وفض عنه خاتمه ورفع عنه غطاءه وأتاح للعفريت ان يحدث عهدا بالهواء والنور والحرية . فالى ان تجد نفوس الشباب المصريين هذا الصياد الذى يخرجها ويرد اليها حريتها ويخلى بينها وبين الهواء والنور والجمال تستمتع به وتمتع به الأجيال الى أن يوجد هذا الصياد تستطيع أن تتحدث عن الذوق الفنى المترف الرفيع وعن تنشئته فى نفوس الشباب كما نشاء » . ص ١٢١ .

فى هذا الجو الذى كانت السياسة فيه لعبة والحكم فيه مغنما ونهبا كتب الدكتور طه حسين هذه الرسائل التى نشر أكثرها فى المجلات فى « الهلال » خاصة ثم جمعت تحت عنوان مرآة الضمير الحديث .

والكتاب ينقسم الى قسمين واضحين : الأول رسائل من النوع القديم الذى كان يؤلفه أمثال الجاحظ من كتاب عصر النثر الذهبى القديم أى أنها مقالات شبه علمية فى موضوع بعينه تحاول أن تستقصى كل جانب من الموضوع وأن تجمع حوله طائفة كبيرة من مأثور القول والأخبار والمعلومات ولذلك نراه ينسبها ادعاء للجاحظ ويحاول موفقا جدا أن يقلد رسائل الجاحظ المعروفة فى شتى الموضوعات . والثانى رسائل حديثة بمفهومه الحديث اى أنها خطابات يوجهها الى أصدقاء قد يكونون فى صفاتهم الرئيسية أو مناسبتهم منحوتين من الواقع ولكنه كأديب متفنن يضيف الى هذه الصفات البارزة والمناسبات الواقعية كثيرا من خياله ليجمع حول الشخصية كل ما يريد أن ينقده بقلمه من أخلاق العصر . وهذه الرسائل يقول عنها انها « وقعت له ولم يعرف على طول البحث وشدة الاستقصاء كاتبها ولا من كتبت اليه » .

والدكتور طه حسين يتعمد التفرقة بين أسلوب المجموعتين فالمجموعة الأولى يتوجه بها عادة كتاب مثل هذه الرسائل القديمة الى طالب علم أو دارس فلذلك نراها تبدأ « يسرك الله للخير ويسر الخير على يديك ، وهداك الله الى الحق وجعلك الى الحق هاديا » . أو تبدأ « وفقك الله الى الخير وعصمك من الشر والاثم . » وهكذا مما تفتتح به مثل هذه الرسائل من دعاء أن يهدى الله طالب العلم الى الخير وأن يوفقه فى حياته طالبا للهداية هاديا الناس .

وفى هذه المجموعة نجد أربع رسائل : الأولى فى الشكر والكفر والثانية فى الأمر والنهى والثالثة فى الوشاية والوشاة والرابعة فى القصد والفرور وهذه الأربعة تستغرق نحو ربع الكتاب . ويقول فى مقدمتها أن صاحبا أقبل عليه بمخطوط فيه رسائل غير معروفة كتب بعضها الجاحظ الى الوزير المعروف محمد بن عبد الملك الزيات وفيها نصائح من الجاحظ لهذا الوزير الذى اقبلت عليه النقمه فاذا هو يهمل الشكر ومن هنا عنوان الرسالة الأولى واما الثانية فهى رسالة الامر والنهى وفيها ينصح هذا الذى وصل الى الوزاره أو ما يشبهها من مكانة مرموقة الا يصد اذنه عن النصح . ونقف عند الصفحة الرابعة من هذه الرسالة فنجد تلميحات واضحة عما كان يجرى فى سماء السياسة فى مصر . فالكاتب ، الذى زعم المؤلف أنه الجاحظ ، يروى للوزير كيف أنه أمر أعوانه أن يتصلوا بالكتاب والشعراء وأن يأمروهم الا يذكروا متاعب السلطان هذا الا بالخير امعانا فى أشباع رغبة حب المدح والفرار من النصائح نصائح الأصدقاء والخلصاء ونصائح الرأى العام الذى من حقه أن يحاسب من ولاهم الأمر ليخدموه لا ليتلقى منهم المدح .

أما الرسالة الثالثة رسالة الوشاية والوشاة فاننا نلمح فيها أيضا صورة من ذوى القلوب المخلصة الطيبة عندما يريدون أن يعملوا مخلصين فاذا الوشاة يعكرون عليهم صفو الجو حسدا وبغضا واستئثارا بما لا يحق لهم . وقد كان طه حسين نفسه موضع كثير من الوشايات فهو يألم ، والمه واضح فى هذه الرسالة ونصحه لصاحب السلطان الا يصدق قول هؤلاء الذين يطيفون به نصح عقلى ولكنه مشبوب بعاطفة من اوذى واحتمل الألم فى مثل هذا الموقف . ويلح عليه الموقف فاذا

هو فى رسالة القصد والغرور حيث يحذر « رفيق الصبا وصديق الشباب وشقيق النفس واليف القلب » وقد ولى منصبا هاما ، من الغرور والاعتداد بالنفس ولكنه يخاف عليه من الناس الذين يسعون عنده بالنميمة ويمشون اليه بالوقيعة مبتغين رضاه عنهم بالوشاية . الخ . حتى يصل آخر الأمر الى قوله « فقد يستبين لك أن الحكم نقمة لا نعمة ومحنة تبتلى بها النفوس وتفتن بها القلوب وتمحص بها الضمائر . واذكر أصلحك الله أيام كنا نلتقى فنذكر فلانا وفلانا من الحكام الذين سبقوك نعيبهم كثيرا ونثنى عليهم قليلا ونرثى لهم دائما . »

اما القسم الثانى من الكتاب ففيه ميل نحو التحرر من الأسلوب القديم أى أن المؤلف لا يتعمد أن يقلد أساوب الجاحظ تقليدا موفقا بارعا كما فعل فى القسم الأول وان هذا القسم هو خطابات اى رسائل بالمعنى المألوف لدينا يبدؤها برسالة « الى » .. هذا الذى لا يريد حتى أن يسميه لأنه لا يدرى كيف يدعوه . وفى الرسالة نص انها نشرت فى مجلة الهلال ليقرأها هذا الصديق الذى فجع فى صداقته وكانت صداقة صبا وشباب قبل أن يبلغا الثلاثين ومنها نفهم أن الصديق قطع أسباب المودة ابتغاء المنفعة المادية السهلة . ومنها أيضا نعرف أن هذا الصديق أديب ولكنه « يحب الأدب السهل ويكره الأدب العسير » ويختم الرسالة بانها « مرآة لن تكون أنت (اى الصديق الخائن) الشخص الوحيد الذى يرى نفسه فيها . » . ولست أدرى أبهذا المعنى عنون المؤلف كتابه مرآة الضمير الحديث أم بمعنى آخر .

والرسالة الثانية قلب مغلق نشرت أيضا بالهلال كما ينص صاحبها والخطاب فيها موجه الى صديق قد أغلق قلبه وشغل نفسه باللذة والثروة ويقول له فيها « صدقنى ان من الخير الكثير لك ولغيرك ان تصدع قلبك قبل أن تصدعه الأحداث . » .

أما « من بعيد » فهى موجهة الى صديق يعمل عملا هادئا مريحا يسأله عن الأصدقاء فكأنما هو بسؤاله عن البؤساء من الأصدقاء الذين لم يتح لهم ما أتيح له « يرغب فى البؤس حين يثقل عليه النعيم » وهو يتظاهر بالوفاء ولكنه فى حقيقة أمره « قلق ، سئوم ، أثر ، لا يستمتع بالنعمة التى تتاح له الا اذا عرف النعمة التى تصب على غيره .. » ثم هو بعد معقد النفس ممسوخ . ولكن كل شىء من حولنا فى الوطن قد مسخ « انظر الى وطنك الآن كيف انزوى وتضاءل وكيف هان أمره على نفسه وعلى الناس وكيف أصبح أضعف من أن يستقل بأيسر شئونه ... أتراه قد مسخ كما مسخ ذلك الفتى ... أم تراه قد ظل كما كان مصدرا للخصب والترف والمجد والبأس ولكن اهله قد مسخوا » ص ٧٢ .

ثم يتحدث الصديق عن الذى « ارتقى فجاة فى غير اعداد ولا تمهيد فاصبح أشبه بالديك . » ولكن الذين ذكروا ليسوا هم وحدهم الذين انفردوا بالمسخ وانما « هى محنة عامة يمتحن الله بها هذا الوطن البائس فى كثير من بنيه . » ص ٧٦ .

وفى « صرعى » يتحدث عن الحاكم المغرور متمثلا بقول زياد فى عنفوان غروره « وايم الله ان لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى » ويذكر هذا الصديق المغرور بالسلطان « أتذكر تلك الأيام ... كانت أمامنا من الجهل والغى والسخف صورة بشعة منكرة ولكنها لم تكن تخيفنا ولا تروعنا وانما كانت تدعونا الى نفسها لا لنحبها بل لنبغضها ولا لنبقيها بل لنلغيها . » ويختتم الرسالة بتحذيره من أن يكون من صرعى غرور الحكم .

وفى نفوس للبيع يتحدث عمن باعوا أنفسهم رخيصة فى سوق الكرامة. وفى كما انت يتحدث عن أدباء الشباب وأدباء الشيوخ مبينا الفرق بين الحديث من شباب وشيوخ فى كل ميدان الا ميدان الفن حيث لا يستطيع احد أن يديل من فن او أن يفرض فنا آخر غير الجيد الذى يفرض نفسه . وفى « بين النعيم والجحيم » يتحدث الى صديق ويرجوه ألا يأتى من سفره الى مصر لما هى فيه من سجن المرضى ولعله وباء

الكوليرا الذى اجتاح مصر آنذاك . ولكنه يتخذ من هذا سبيلا الى وصف ما فى مصر من أدواء أشد من الوباء هولا وتدميرا . ان فى مصر جحيما من الوباء والموت والفقر والجهل والمرض وجحيما آخر من الحسد والحقد والبغض والموجدة » . ص ١١١ .

وفى رسالة « الحرية أولا » يؤكد أنه لا حياة للوطن ولا للنفس الا بالحرية وهو يتحدث عن الطلاب وما يجب أن ينعموا به من حرية .

أما فى « ويل للشجى من الخلى » فهو يصف صديقا مترفا ينعم بخيرات مصر فى فرنسا ويعيب على مصر تأخرها وانحطاط مستوى الحياة فيها جمالا ونظاما وخلقا ويعيب على فرنسا الفوضى فى الحرية . وهكذا بينما هو يعيش عالة على وطنه غريبا فى فرنسا لا يفيد أحدا ولا يستهدف أية غاية لا يحسن الا العيب والسفاسف .

وفى رسالة « لا ونعم » يتشوق الى أن يقف المصريون وقفة صامدة ليقولوا « لا » يعنى ليرفضوا الظلم الواقع عليهم ويظهروا شخصيتهم

أما « صحائح الأنباء » فهى رسالة الى صديق مسافر يصور له فيها حيرته ولا يدرى ماذا يكتب له عن مصر وكل ما فيها يغلى فى اضطراب « لقد خاص علم العلماء الى جهل الجهلاء ففسدت أمور الناس » ص ١٤٧ « ونظرت مصر فاذا أهلها ساخطون صاخبون قلقون مضطربون لا يرضون عن شىء ولا يرضى عنهم شىء » ص ١٤٧ وفيها يتهكم على حرمان مصر من الحرية ومن العلم بأمر حكامها الذين وضعوا الشرطة فى الجامعة ليقتلوا الحرية ويقتلوا العلم .

وتختم هذه الرسائل بعزاء الأديب الوحيد فى مثل هذه المحنة محنة الأخلاق ومحنة الوطن كله تختتم « باخوان الصفا » أى بالكتب . فيها ومنها وحدها ، كان الأديب يجد الراحة والهدوء ولكنها راحة الغيبوبة بمنوم سرعان ما يفيق منها ذو الحس المرهف ليكتب من جديد .

الدكتورة سهير القلماوى

سطور من كتاب ...

« عندما يسير الاقتصاد القومى لمجتمع ما ، وفق مبادىء العدل الاجتماعى .. ولا تصبح الثروة فيه امتيازا للقلة ، بل حقا للكثرة .. وعندما تصير الدولة بحكم وظيفتها التاريخية والسياسية ، الأداة التى تحقق سيادة المجتمع على مصادر ثروته ، وقوى اقتصاده .. عندئذ ، تبلغ العلاقة بين الاقتصاد والسياسة ، أى بين الوضع الاقتصادى والتنظيم السياسى ذروة الوثاقة ، والاحكام ، والأهمية » .

... ازمة الحرية فى عالمنا



تأليف: الدكتور احسان عباس

دار المعارف، ٣٣١ ص ١٧ × ٢٤ سم.

طلع الدكتور احسان عباس على المكتبة العربية بكتاب عن العرب فى صقلية ، وقد أحببت أن أعرض أولا لملخص واف لما ورد فى هذا الكتاب :

فقد قسم هذه الدراسة الى ثلاثة كتب خصص الكتاب الأول للحديث عن صقلية فى العصر الاسلامى وخصص الفصل الأول منه للحياة السياسية فأشار الى لمحة عن صقلية فى العصر البيزنطى فتحدث عن بازاريوس قائد جستنيان واستيلائه على صقلية من يد القوط سنة ٥٣٥ ميلادية وما لقيه البيزنطيون من ترحيب أهل البلاد . ومن الغريب أن صقلية فى ظل السيادة البيزنطية قد ترددت فيما ترددت فيه أغلب البلاد التى خضعت لحكمهم من مضاعفة الضرائب وضعف مستوى الجباية واشتغال الجند بغير الجندية واستبداد الكنيسة والى استنزاف خيرات البلاد وامتلائها بجموع العبيد فكانت « صقلية البيزنطية قد فقدت شخصيتها . ومقوماتها العمرانية واختنق فيها كل شعور بالرفعة الانسانية » .

ثم عرض للفتح الاسلامى للجزيرة وبداية اهتمام المسلمين بها فى سنة ١٢٢ هـ الى ان وضحت الرغبة فى الفتح الحقيقى من عهد زيادة الله الأغلبى الذى تخلص من الهدنة التى كانت معقودة بين صقلية والقيروان وقاد أسد ابن الفرات حملات الغزو وأقلع الأسطول من مدينة سوسة فى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ فى نحو مائة سفينة واشترك فى الجيش أشراف العرب والبربر والأندلسيين ، واستولى على مازر وبلرم التى مكنتهم من الاعتماد على مدد دائم من أفريقية وخاضوا معارك عنيفة فى قصريانة ومسينا التى فتحت أمامهم الطريق الى جنوب ايطاليا وتوج النصر باخذ قصريانة عام ٢٤٠ هـ . وفى سنة ٢٦٠ هـ حاصر المسلمون سرقوسة معقل المقاومة البيزنطية وسقطت فى أيديهم ثم تتابعت حملات الغزو حتى عهد ابراهيم بن الأغلب الذى فتح طبرمين سنة ٢٨٩ ، بل استمرت محاولات استكمال الفتح بعد زوال الأغالبة فقد اضطر أحد الولاة الكلبيين على الجزيرة أن يعاود فتح مدينة طبرمين سنة ٣٥١ هـ .

ثم أشار المؤلف الى فترة الانتقال من يد الأغالبة الى بنى أبى الحسين الكلبى وما منيت به الجزيرة من فتن بسبب زوال دولة الأغالبة وقيام الفاطميين ، استمرت من عام ٣٠٠ الى عام ٣٢٧ هـ ، وهى تمثل ذلك الصراع العنيف بين العباسيين والفاطميين . واعاد عبيد الله المهدى فتح الجزيرة واخضاعها للنفوذ الفاطمى وثار أحمد بن قرهب احد الولاة الفاطميين وأعلن الدعوة لبنى العباس وعمت الثورات الجزيرة

كلها ، وكان الفاطميون لا يكفون عن التدخل لاقرار الأمن فى البلاد .

ثم أشار الى تكوين الامارة الصقلية فى دائرة النفوذ الفاطمى تحت حكم بنى أبى الحسين الكلبيين ومؤسسها الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى من أخلص أعوان الفاطميين الذى أقر الأمن ، وتعاقب على حكم صقلية عشرة ولاة من الكلبيين فى مدى خمسة وتسعين سنة شهدت ابانها تقدما فى الحياة العمرانية وفى العلوم والآداب وجهادا مستمرا فى جنوب ايطاليا وفى مقاومة أطماع الروم فى الجزيرة . وأخلدت صقلية الى الهدوء وجنت من ذلك شهى الثمار . وبلغت الجزيرة اوج الاستقرار فى عهد الأمير الكلبى أبى الفتح يوسف الملقب بثقة الدولة (٣٧٩ هـ — ٣٨٥ هـ) .

ثم عادت الجزيرة الى أتون الانقسام مرة اخرى فى عهد أمراء الطوائف وادى هذا الانقسام الى خضوعها للنرمان عام ٤٤٤ هـ وضاعت السيادة الاسلامية على الجزيرة فى الوقت الذى لقيت فيه القيروان مصيرها السيىء على أيدى العرب الهلالية .

وختم عرضه للحياة السياسية بالحديث عن الحكومة الاسلامية فى صقلية والى دور الوالى فى هذه الحكومة والى اتخاذه مجلسا استشاريا من حوله وقيامه على أمر الجهاد وكانت مدينة بلرم دار الامارة فيها قصر الأمير حيث المال والسلاح والكساء والى استعانة بعض الولاة بحرس غريب عن الجزيرة والى ما كان من ارتباط صقلية بمصر بعد رحيل المعز اليها حيث كان الوالى يدين بنوع من التبعية للقاهرة ، وكان الخليفة الفاطمى يتدخل فى الشئون الداخلية وكانت صقلية الى عهد متاخر ملكا لسلطان مصر على حد تعبير ناصر خسرو . كما تحدث عن أهميته الى القاضى . وقضاة صقلية وسيرتهم وزهدهم وتحدث عن دواوين الحكومة وأهمية ديوان الخمس .

وأفرد الفصل الثانى لدراسة الحياة الاجتماعية .

فاشار الى السكان الأصليين الذين لم يدخلوا فى الاسلام واتخذوا وضع أهل الذمة وكانوا مستقلين فى الفترة الأولى من الحكم الأغلبى فى تدبير أمورهم وتحصنهم وراء الأسوار ، وانتهى استقلال أكثرهم فى عهد ابراهيم بن الأغلب ، ودفعت المدن الجزية ، وانفصمت صلتها ببيزنطة ، وتناقص عدد الأغريق والطليان . وكان بعض أهل الذمة فى فترة اختلاف المسلمين ينقضون العهود والمواثيق ، ويحضون على الثورة ، ويعود المسلمون الى أخضاعهم مع مزيد من الأعباء . وقد ترك الفتح أثرا كبيرا فى جماعات العبيد الذين أصبحوا طبقة كبيرة فى المجتمع الاسلامى ، كما زاد عددهم بكثرة الأسر والسبى ، وكان تسربهم الى صفوف الجيش مدعاة للمزيد من الفتن والثورات . ووفدت أجناس كثيرة الى صقلية مع الفتح وبعده ، منهم البربر من كتامة ولو ان الذين سكنوا النواحى الشمالية ، وكانت عاصمتهم جوجنت ، ومنهم العرب العدنانية والقحطانيون وهم كثرة العرب ، ومنهم همدانيون وكلبيون ، ووفد بعض أهل خراسان ، وكذلك وفد اليهود والصقالبة .

وقد عرض للأنظمة المالية والتفاوت فى الثروة ، واشار الى تطبيق الضرائب الاسلامية ، وان كانت صقلية قد تفردت بلون خاص ، منها مثلا المستغلات واللطف ومال البحر والقبالة . وكانت مغالاة الولاة فى الجباية من أهم أسباب الثورات وقضى نظام الارث الاسلامى على الاقطاعات الكبيرة كما حفلت البيئة بالتفاوت البينى فى الثروة بين الطبقات . وقد لاحظ ابن حوقل مظاهر الفقر الشامل وقلة المال فى أيدى الناس ورخصا فى الحاجات وقلة فى النفقات مع وفرة وارد الجزيرة ورخص أسعارها . ورات الجزيرة فى ظل الحكم الاسلامى مظاهر كثيرة النهضة الزراعية والصناعية وحاصلاتها من القمح والزيت والكروم والفاكهة ولا يذكر الادريسى بلدا الا ويقترن ذكره بالبساتين والمنازه والمياه والمزارع الطيبة ، وشمل الرخاء الصناعة أيضا ، الصناعات المعدنية وصناعة النسيج التى اشتهرت بها صقلية ، وكانت تصدر الى مصر ، واستدعت النهضة الصناعية تعدد الحرف فى أيدى الناس .

وأشار الى موضوع الدين والأخلاق ، وفطن الى تحيز ابن حوقل وهجائه أهل صقلية ، وانتهى الى أن الأساس الذى بنى عليه ابن حوقل قلة المروءة والبلادة فى الصقليين فاسد ، وان كان يؤخذ على أهل صقلية اذ ذاك كرههم للغريب على وجه العموم . وتدل صور ابن حوقل على مجتمع صقلى منحل ، ضعفت فيه الروابط الخلقية الى حد غير قليل ، وتعارضت مقاييسه مع قواعد الدين الاسلامى أحيانا .

أما الفصل الثالث فقد أفرد للحياة العقلية ، وقد اولى المؤلف الصلات الثقافية عناية خاصة ، فتحدث عن الصلات العلمية الوثيقة بين صقلية والقيروان أو بين صقلية والقاهرة . وان كانت قد نشأت مدرسة صقلية خاصة فى بلرم ، أعلنت عن وجودها الثقافى والعقلى ، وبدأت صقلية تتطلع بكيان خاص مستقل . وقد فاقت صقلية جميع البلاد الاسلامية فى كثرة المساجد والمدارس لرسوخ المسيحية فيها عند الفتح ، والاكثار من المساجد خير ما يقنع الجماعة الاسلامية بانتصارها على كل موروث صقلى وتثبيت الصبغة الاسلامية فى البلاد . وكانت بلرم الحاضرة الثقافية أكثر البلاد امتلاء بالمساجد والمدارس ، وقد كثر المعلمون حتى كان منهم فى بلرم مالا يقل عن ثلاثمائة ، وهذا كان يشير الى نشاط تعليمى واسع ، وحرفة التعليم لم تكن تدر خيرا كثيرا على أصحابها .

وكانت الكتب التى يتداولها الطلبة والأساتذة مما يرد على الجزيرة من بلاد المشرق والأندلس والقيروان مثل اليتيمة للثعالبى أو المدونة لسحنون أو دواوين الشعر أو كليلة ودمنة أو كتب أبو حيان التوحيدى .

وتأثرت صقلية من باب الفقه والحديث والقراءات بما عرفته أفريقية منها ، فمن أفريقية انتشر مذهب مالك ، ومنها كان القضاة ، وتكونت لصقلية مدرسة فقهية من أبنائها فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، برز منهم عبد الحق الفقيه ، ومن طريقه امتد أثر صقلية الى الخارج . وقد غلب اللحن على أهل صقلية ، وكان قوام الكلام فى الحياة اليومية ، حتى لقد انفردت صقلية بلهجة ميزتها عن المشرق والمغرب والأندلس . وظل هذا اللحن ينمو حتى ظهر من الشعر فى العصر النرماندى ، ومع ذلك فقد برزت فى ميدان اللغة واشتهر فيها علماء امتدت شهرتهم الى غير بلدهم ، كما اجتذبت فريقا من مشاهير اللغويين . وكانت نهضتها اللغوية تعاصر نشاطها فى الفقه ، وكانت بها مدرسة واضحة المعالم ، وشيخ هذه المدرسة هو محمد بن عامر بن الحسينى الذى أقام بمازر .

وتأثرت صقلية بتيار الزهد والتصوف فقد أصبحت رباطا كبيرا ، فريق من اهلها وهب نفسه للدفاع ، وآخر قنع بالانفراد والانقطاع عن الدنيا ، وأقاموا التصوف على الحياة الواقعية وعلى الـ لامةالفقهية المذهبية ، وكانتصوف أهلهانورة نفسية على سوء الحال ومحاولة لاصلاح الباطل فى الفرد لاصلاح الجماعة . وألم الصقليون بشىء من الثقافة الفلسفية ، وقد عرفوا فى وقت متأخر كتب أبى حيان التوحيدى فى التصوف والفلسفة ، وشاع الطب فى أيام الكلبيين واواخر العصر الاسلامى .



وأفرد المؤلف الكتاب الثانى من بحثه للحديث عن صقلية فى العصر النرمندى ، فأشار الى الانقسامات التى سادت الجزيرة والى التناحر بين أمرائها والى استنجاد أحدهم بالنرمان فطمعوا فى الجزيرة ، واستولوا على مسينه عام ١٠١٦ ميلادية . واستصرخ بعض المسلمين بالزيريين فى تونس ، فلم يتوقف هذا التدخل، ووقعت الكارثة واستولى النرمان على بلرم ، ثم سلمت مازر ثم سرقوسة عام ١٠٨٦ وجوجنت وتوطد النفوذ النرمندى عام ١٠٩١ ميلادية .

وفى الفصل الثانى تحدث عن الحياة الاجتماعية للجماعة الاسلامية فىظل النفوذالنرمندى ، فحلل الأسباب التى كمنت من وراء تسامح النرمان مع مسلمى صقلية ، فقد كانوا أقلية ضئيلة ، ولم تكن

لهم حضارة يبسطونها على هذا العالم الذى كان يمد ما حوله بالحضـــــارة . على أن أهم العوامل التى أحدثت انقلابا فى حياة الأجناس فى صقلية ، فهو تطبيق الاقطاع ، كما كان الحال عليه فى أوربا وتثبيته بالقوانين والتشريعات . فقضى على حرية المالك الصغير ، وانقسم النـــــاس الى طبقـــات متدرجة أعلاها الملك وأدناها رقيق الأرض ، وبين الطبقتين أمراء ودوقات لهم الاقطاعات الشاسعة ولهم الامتيازات فى المحاكم وفى القضايا المدنية . والمسلمون عامة فى العصر النرمندى كانوا اما أهل مدن يتمتعون بشىء من الحرية لا يحق لهم التوسع فى ممتلــــكاتهم ، واما فلاحـــين فقدوا كل حرية وأصبحوا رقيق أرض أو عبيـــدا ، واما جنـــدا فى الجيش والأسطول .

وسن الأمير النرمندى رجار القانون دون تحيز ، وترك لكل شعب مجاله ، على الا يتعارض فى عرفه وعاداته مع القوانين الموضوعة ، ومن المحتمل ان يكون المسلمون قد اشتركوا فى بعض الســـلطات البلدية . وامتـــدت الصبغة الاسلامية عامة أيام النرمان الى كثير من نواحى الحيـــــاة ووضحت هذه الصبغة فى حياة البلاط نفسه ، وكذلك فى الاتعـــــاب ، واتخـــــذت الدولة ثلاثة أنواع من الدواوين الاسلامية ، وهى : ديوان المظالم وديوان الطرز وديوان التحقيق المعمور .

وبعد أن استقر الأمر لرجار جرى على سياسة تقريب المسلمين ونشر سيرة العدل وأقرهم على دينهم . وكان المسلمون يؤيدون الملك ويحبونه حتى يضمنوا لأنفسهم تقدما فى دولته وليحميهم من الأجناس الأخرى ، واذا كان المسلمون أقلية فى بلد تخافتوا فى أداء العبـــادة ، وكانوا رغم ذلك غرباء عن اخوانهم المسلمين فى الأقطـــار الأخرى وتحت ذمـــة غيرهم يؤدون الجزية ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريتهم ولا فى أبنائهم .

وفى الفصل الثالث عالج الحياة العقلية فى ذلك العصر ، فأشـــــار الى تضاؤل المسجد كمدرسة فقهية لغوية أدبية والى انهزام الدراسات الدينية أمام الدراسات العلمية الأخرى . وقامت الحياة العلمية فى ذلك العصر على المشـــاركة فى غير لغة واحدة . وكانت تقوم بتوجيـــه من الملك نفسه ، واستوردت صـــقلية الكتب كما كانت تفعل ، ونعمت البلاد بنهضة علمية بسبب تشجيع الملوك ، وازدهرت حركة الترجمة الى اللغة اللاتينية من العربية واليونانيـــــة . ولم يكن نصيب العلماء المسلمين فى الحركة العلمية قليلا فقد ظهر الشريف الأدريسى ، وعاش فى بلرم فى أيام غليالم الأول ، ومما عزز الحركة العلمية انها قامت على التجربة والمشاهدة ، ثم الاستفادة منها فى الحياة العملية .

أما الـــكتاب الثالث من البحث فقد خصصـــه المؤلف لحياة الشعر العربى فى صقلية الاسلامية وقد استغرق أكثر من نصف الكتاب ، وخصص الفصل الأول منه للمكونات الكبرى فى شعر صقلية الاسلامية ، فأشار الى أن موقع الجزيرة هو الذى تحكم فى الهجرة من صقلية واليها ، وجعل الشعر الصقلى نفسه صورة من الصادر والوارد كما هو الحال فى التجـــارة ، فممن هاجر اليهـــا محمد بن عبدون السوسى وابن رشيق القيروانى صاحب العمدة والأنموذج وعبـــد الحليم القضـــاعى ، كما بين أثر الأجناس فى انتاج الشعر الصقلى وهى اما صقلية أصلا أو صقلية بالمهجر أو مهاجرين . ولم تصهر هذه الأجناس بحيث تنسى عصبياتها القبلية ، ولذلك مثل الشعر هذه الروح القبلية فى بعض جوانبه .

ومن الأمور التى أثرت فى تكوين الشعر أيضا الفترة التى نما فيها هذا الشعر وهى تمتد من ٢١٢ الى ٤٦٤ هـ ، فحتى ســـــنة ٣٥٩ لم تكن الحياة تهيىء لنمو الشـــعر واكتماله ، ولم نعد نسمع عن شعر صقلى فى مدة خمسة وثمانين عاما قضـــاها بنو الأغلب فى فتح الجزيرة وحكمها . وأول شعر نستطيع تأريخـــه وصلنا فى أيام أبى القاسم الملقب بالشهيد ٣٥٩ - ٣٧٢ ، ومن هنا بدأ استقلال صـــقلية السياسى ، وبدأ الشعر الصقلى حياته الصحيحة .

وتم جنى ثمار هـــذا الشعر فى نهاية القرن الرابع وأول القرن الخامس بسبب الاســـــتقلال السياسى والهدوء النسبى ، وبدأ احساس الناس بالجزيرة ، وتجسد معناها فى نفوسهم ، وقبل أن



تنضج الثمار جاء الفتح النرمندى ، وهرع الشعراء والعلماء يلوذون بأذيال الفرار . وثمــة حقيقة رابعة أثرت فى تكوين الشعر ونعنى بها الفتنة التى أسقطت بنى أبى الحسين الكلبيين ، وقسمت الجزيرة الى دويلات صــغيرة ، فقد مزقت كلمة الشعراء ، وكانت سببا فى ضياع الموطن وزوال السيادة العربية الأمر الذى أضعف التجاوب بين أهل صقلية وركنوا الى الاستسلام .

وخصص الفصل الثـانى للحديث عن الشعر الصقلى بين القوة والضعف فى العصر الاسلامى ولاحـظ انه مما قلل من أصــــالة الشعر الصقلى ومورد التجديد فيه اعتماده على تقليد المشارقة والأفارقة . وكان أشد تأثرا بمدرسة القيروان ، وما شــاع فيهـا من موازين للنقد الأدبى ، ممثلة فى العمدة لابن رشيق مطمح كل شاعر من شعراء القيروان ، كما عرفت أساليب القيروانيين من ترفع عن الهجاء وكره المحلية ، وتفرقها بين الذوق الحضرى والبــدوى . كمـا لوحظ أن الشعر قصر عن تصوير القلق الداخلى بصــقلية او التعبير عن الصراع الاقتصادى ، كما تأثر الشعر بالتيــار الذى طلع على أفق الشعر العربى منــذ مطلع العصر العباسى من انجذاب بين الدين والزهـــد والتقوى والتخلى عن الدنيا وبين الأخذ بأسباب من الحياة المستهترة الماجنة واشباع النفس من لذة الخمر والحب . واحتلت الخمر مـكانا مرموقا فى شــعر أرباب المجون ، وتفننوا فى وصــفها حتى ليعتبر ابن حمــديس الصــقلى شــاعر الخمر ، والغزل فى شــعر الصقليين فهو وجد مبهم ، وشخصية المرأة فيه غير متحققة ، وليس هناك الا أسماء تقليدية تتردد فى الغزل وفى الشعر الصقلى صورة حية لمجتمع يستمتع بالرقص والموسيقى والغناء .

وخصص الفصل الثـالث لابن الخياط شاعر صقلية فى العصر الاســلامى فكانت دراسة طيبة ممتعة ، وقد وجد أنه خير من يمثل البيئــة الصقلية فى العصر الاسلامى ، لأن شعره يدل على أنه بقى فى صقلية حتى أيام ابن الثمنة . وتحدث عن مدحهم ابن الخيــاط من الأمراء الكلبيين ، ومــدى تصويره للــكثير مما نجهله من أخبــار صـــقلية ورجالاتها . وقد أتاحت له ظروفه أن يكون شاعر بنى أبى الحسين الكلبيين ، فهو يسجل لهم حياتهم الحربية والسياسية ، وهى الحياة التى تعد أبرز ما فى تاريخ صقلية ، ويصف لنــا المعارك ويسجل الانتصارات ويتحدث عن بعض الثائرين عليهم . وقد عرف بنفاذ البصيرة وبعد النظر ، وكانت له القدرة على تصور ما يجىء به المستقبل ، ولم يكن ذلك ارتباطا بفكرة الألوهية انما من ســخرية الواقع والاحساس بالعجز عن النفاذ فى هــــذا الباب المغلق . وتجلت فى شعره الطبيعة الريفية بأحلى معانيها ، كما يمتد شعوره بالبيئة الى الحياة المدنية ، ونجد عنده شــعور السيد الارستقراطى ازاء عبيـــده ، وفى صنعته الشعرية لا يحفل كثيرا باللطف والرقة ، وهــو اقدر على تصوير المناظر العنيفة .

وفى الفصل الرابع أرخ لهجرة الشعر من صقلية خــلال السنوات الثلاثين التى تم فيهـــا الفتح النرمندى ، فغـادر الجزيرة عدد كبير من العلماء والأدباء ، وهاجر آلهة الشعراء الى الأندلس مثل ابن حمـــديس وأبى العرب الصقلى وابن أبى اليسر .

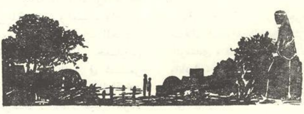
وخصص الفصل الخامس لابن حمديس كأثر من آثار هذا الفتح ، فعرض لحياته فى سرقوسة ، وفيها وهب شبابه للحب والحرب ، وفى سن الرابعة والعشرين غادر صقلية ، وصحب العرب فى الصحراء الأفريقية سنة ٤٧١ ، ثم استقل البحر الى الأندلس حيث المعتمد بن عباد ، وأقام فى أغمات مغتربا مع المعتمد . وطال به العهد فى أفريقية فى ظل بنى باديس ، وظل يتردد ما بقى من عمره الطويل بين المهدية وبونة وبجاية وميورقة ، وفقد بصره فى أواخر حياته ، وتوفى عام ٥٢٧ ودفن ببجاية .

وعرض للشعر الصقلى فى ديوانه فى الأربعة وعشرين عاما التى قضاها فى الجزيرة ، وتكونت النواة الأولى لشاعريته ، وشعره هو شعر الفارس المحارب الذى يتغنى بالقوة ورقة الحب وقوة الشباب واندفاعه وحرارته . وقد حلل قصيدتين من شعره الصقلى . وقد تركت صقلية أثرا كبيرا فى نفسه وشعره رغم كثرة المؤثرات فى حياته وضياع الوطن ، غير فلسفته فى اللذة ، ومن ثم اتصل الحزن بقلبه وحياته ، فقضى عمره يبكى مصائب الناس ، واستولى عليه الشعور الدائم بالغربة .

وفى الفصل السادس أرخ المؤلف للشعر فى صقلية فى العصر النرمندى ، فقد انفصلت بتاريخها عن ممالك الاسلام ، وأصبح الشعراء فى بيئتهم منعزلين لا تربطهم روابط بالمسلمين ، وقد عاش الشعر فى العصر النرمندى فى بيئتين فى كل منهما خصائص اجتماعية وبيئية مختلفة ، ولذلك فهذا الشعر قسمان ، شعر يتصل بالملك النرماندى وبلاطه وفيه المدح ووصف القصور والرثاء ، وشعر يصور علاقة المسلمين وحياتهم وفيه العتاب والمدح والرثاء ، وشعر الرسائل . فالبيئة الاسلامية أو المجتمع الاسلامى فقد السيادة ، وأصبح محكوما بعد أن كان حاكما ، كما أصبح حكمه حكم الأقلية لهما للأقليات من نشاط وما فيها من محاولة للمحافظة على الكيان الجماعى ، وما فيه من مداهنة وتملق . كما صار هذا المجتمع دائم التوجس والخوف من عدوان يقع عليه بين لحظة وأخرى ، وأصبح من سماته التدين والالتفاف حول عمود الدين ، ومن امتحان فريق من الأقلية بالفتنة فى دينه ولجوئه أحيانا الى تغيير دين آبائه ، لاخفاقه فى دنياه وشيوع الفوضى فى حياة الأسرة ، وقد صور الشعر حياة هذه الجماعة الاسلامية أصدق تصوير .

وخصص الفصل السابع للحديث عن هجرة الشعر الى صقلية والى دأب الملك النرمندى على تشجيع الوافدين بالمنح والعطايا ، وقد أثار هذا ابن قلانس فترك مصر وهاجر الى صقلية . وجعل للموضوع خاتمة تحدث فيها عن وضوح الطبيعة فى شخصية صقلية ، فقد أثرت فى توجيه الحياة الاسلامية ، وكان لها أثر بارز فى الشعر ، فقد جاء متأثرا بالروح الدنيوية التى حفزت الشعراء الى اتخاذ موضوعات الحب والغزل والعبث برجال الدين ، وقد أثر ذلك فى الشعر الايطالى وخاصة شعر الجوليارديين Goliardie • وثمة حقيقية أخرى كانت ذات أثر فى تكوين الشخصية الصقلية ، وهو أن الجزيرة كانت ملتقى شعوب لا وطن شعب ، وفى ذلك تفسير للضعف الذى نلمسه فى أقليمية الشعر .

وقد اعتمد المؤلف فى بحثه هذا على كتب نادرة قيمة ، فقد أفاد من آراء المستشرق أمارى ،



وخصوصا كتابه تاريخ مسلمى صقلية ، وهى الطبعة التى اشرف عليها الأستاذ نلينو ، وزودها بتعليقات هامة ، ثم ما كتبه البارون فون شاك عن الشعر الصقلى . كما اعتمد على بعض المخطوطات النادرة ، منها « مختصر الكتاب المنتحل من الدرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة لأبى القاسم على بن جعفر بن على التميمى السعدى ثم الخريدة الجزء الحادى عشر للعماد الأصفهانى ثم المغرب الجزء الرابع ، وفيه قطعة عن صقلية تكون الكتاب الثانى من كتب شمال المغرب حسب ترتيب ابن سعيد واسمها « كتاب الألحان المسلية فى حلى جزيرة صقلية » ثم اختيار على ابن منجب الصيرفى من الدرة الخطيرة وهى اقدم المختارات فيما يظهر .

ومن أمتع الدراسات التى تضمنها الكتاب عرضه للحياة الثقافية فى صقلية والافادة من الشذرات المتناثرة ، وخلق منها كلاما متكاملا طيبا ، ولعل أشدها متعة الكتاب الذى خصصه للشعر الصقلى الذى هو جوهر الموضوع ولبه ، وفيه نظرات ثاقبة وتحليلات طيبة ودراسة ممتعة .

ومع هذا لا يخلو الأمر من بعض ملاحظات ، لا تؤثر فى ذلك الانفعال الطيب الذى خلقه الكتاب فلو أطلق على كتابه هذا اسم الحضارة العربية فى صقلية ، لكان أكثر تمشيا مع ما عرض له فعلا ، فالحياة السياسية استغرقت منه جهدا قليلا ، على حين فصل القول فى كثير من الموضوعات الاجتماعية والثقافية ، هذا فضلا عما يشعر به قارىء الكتاب من أنه تخصص فى الشعر الصقلى فحسب ، وقد أفرد الكتاب الثالث للشعر وحده ، وكتب فيه نحوا من مائة وستين صفحة .

أما الدراسة الجغرافية التى كان يجب أن تكون مدخلا طيبا للموضوع فهى مخلة غير كافية تغلب عليها المسحة الأدبية ، ولم يعن بدراسة علاقة صقلية بعالم البحر الأبيض المتوسط بجنوب ايطاليا وأوربا بوجه خاص وبالعالم الاسلامى بوجه عام . أما الفتح النرمندى فلم يكتب فيه الا بضعة سطور ، ولم يعرض بعلاقة صقلية بالزيريين فى تونس أو بالحماديين فى الجزائر ، ولا الى المحاولات المتكررة لاسترداد الجزيرة ودراسته للحكومة الاسلامية فى صقلية سريعة ، كانت فى حاجة الى صبر واناة ومزيد من التفصيل . ودراسته للحياة الاجتماعية تسير على نسق لم نسمع به فى اية دراسة اجتماعية من قبل ، فلم يعرض لطبقات السكان ولا الى الحياة فى المدن او فى الريف أو للأعياد والمواسم والحفلات أو الأزياء أو الأمراض والعلل الاجتماعية ، انما نراه يقحم الأنظمة المالية ويتحدث عن التفاوت فى الثروة أو النهضة الزراعية والصناعية . وكان الأجدر أن يفرد للحياة الاقتصادية دراسة خاصة ، كما قصر دراسته للدين والأخلاق على مناقشة آراء ابن حوقل دون القيام بدراسة موضوعية مستخرجة من أهم المصادر المعروفة .

دكتور حسن أحمد محمود

سطور من كتاب ...

« من الأهمية بمكان أن يعرف كل منا كيف يكسب عيشه ، الا أن هذا ليس هو الهدف النهائى للحياة ذاتها ، لأن طريقة التمتع بالحياة تفوق فى أهميتها مجرد كسب العيش ، ويجب أن تكون اسمى غاية لكل أنواع التعليم ان يجعل الحياة أكثر امتلاء وغنى » .

... دور الثقافة فى اعداد المديرين

الخيط الأبيض

تأليف : محمد مفيد الشوباشي

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي جولات مشهورة فى عالم الأدب والشعر والترجمة منذ أكثر من أربعين عاما ، وروايته الأخيرة « الخيط الأبيض » من الروايات القيمة الموجهة ، اذ تميزت بميزتين مهمتين ، أولاهما التجرد من النوازع والبدوات الجنسية الشائعة فى جل بل كل الروايات العربية ، وثانيتهما التوجيه الى أدب مستقل جديد يعبر عن قيمنا الجديدة ، وعن مستقبل أمتنا ، ويعكس حياتها ونشاطها فى صور صادقة حية .

وهذا هو الفجر الجديد الذى نتوق اليه ، ونتطلع الى بلوغه أو « الخيط الأبيض » من الفجر الصادق كما يقول المؤلف فى ص ٤٣٨ — ومن هاتين الكلمتين استعار المؤلف عنوان روايته ، وآثره على أى عنوان آخر يمثل الفكرة المحورية التى دارت معظم أحداث الرواية حولها ، وهى فكرة الاقتران بالمصرية دون الأجنبية ، وتغليب حب الوطن الكبير على الحب الصغير والاعتصام بالعقل فى وجه العواطف المتضاربة العاصفة .

والرواية بسيطة فى موضوعها ، ولكنها عميقة ، فى تحليل عاطفة الحب ، بل تشريحها ، كما أنها زاخرة بالمفاهيم الأدبية والأيديولوجية الجديدة ، وهى فى كلمات ، تروى قصة أسرتين صديقتين احداهما انجليزية عاشت فى مصر قبل ثورة عام ١٩١٩ — والثانية مصرية متحضرة ، وبين اثنين من أفراد الأسرتين ، شب حب وليد ، بين أحمد منصور المصرى ، وبين لورا بنت المستر ويمان ، ولكن هذا الحب لم يجد التربة الانفعالية لنموه وازدهاره فقد قامت فى وجهه عقبات ، منها ما هو وطنى ، ومنها ما هو خلقى ومزاجى ، ومنها ما هو وجدانى ، فما تكاد تذلل عقبة ، أو يخيل أنها ذللت ، حتى تعترض عقبة .

كانت جنسية الفتاة الانجليزية عقبة ، فذللت بتجنس والدها بالجنسية المصرية ، وكانت أعمال الانجليز العدوانية على المصريين ، عقبة ، فذللت باستنكار الفتاة لهذه الأعمال ، أو خيل أنها ذللت ، ثم وقفت عقبة كأداء هى احساس الفتى المصرى بوجود تباين فى الخلق والذوق والمزاج بينه وبين الفتاة الانجليزية ، وكان يمكن أن تذلل هذه العقبة ، لولا ان لاح فى حياة الفتى المصرى وجه مصرية حسناء جذابة ، ملك قلبه وعقله وأخرجه من حيرته وتردده ، واقباله وادباره ، فاقترن بها .

هذا هو الهيكل العظمى للرواية فى كلمات ، أما لحمها ودمها وأعصابها ، وروحها ، وما انبثقت فيها من آراء توجيهية ، وما وعته من صراعات نفسية ، وتحليلات بارعة فلا يستطاع الحديث عنه حديثا صادقا الا بقراءة الرواية ، واستيعاب مضامينها ، وتعرف تقنيناتها الفنية . وما يكمن وراءها من مفاهيم .

وسنحاول أن نلم فى هذا المقال بالعناصر الجوهرية للرواية معتمدين على نصها ، غير ذاهبين ، فى فهمها مذاهب بعيدة وتأويل أحداثها تأويلا عجيبا لا يحتمله نصها ، كما فعل بعض النقاد الذين تناولوا هذه الرواية .

وتبدأ الرواية فى فصولها الأولى بموقف درامى مؤثر ، فها هى ذى لورا الانجليزية مع خطيبها الميجور جاكسون على ثنية وداع مصر بعد أن مات والدها ، ولكنها بدلا من الرحيل معه تتركه ، وتقفل الى البيت راجعة ، ! وأفراد أسرتها فى عجب وألم من فعلتها ، حتى الخادمة مارى ،



الناشر مؤسسة التأليف والترجمة
عدد الصفحات ٤٩٨ مقاس ١٧ × ٢٤ سم
الثمن ٤٠ قرشا

وها هم أولاء يسألونها عن سبب عودتها فلا تجد ما تجيب به الا قولها : انها لا تريد أن تفارق عظام أبيها ! وتثور الأسرة ويهيج بعض أفرادها وبخاصة أخوها چفرى وأختها كلوديا . ويمتعض هذان امتعاضا شديدا ، ولا يخفيان هذا الامتعاض حتى عند حضور أحمد للسؤال عن لورا وسبب عودتها ، وعند تناوله الغــذاء مع الأسرة ، يربض چفرى عابس الوجــه ، مقطب الجبين ، ويوجه للضيف عبارات غير لائقة ، تجعله يهم بمبارحة المائدة ، لولا امساك لورا به . ولم تقف الأم موقف هذين الولدين ، بل أخفت حسرة قلبها ، لما كان يعتلج بقلبها من أمل فى اقتران الفتى المصرى بابنتها .

وقد اعتمد المؤلف فى تبيان هذا الموقف الأخير على الحوار الكاشف ، الذى أجراه بين السيدة ويمان ، وابنتها ، كما اعتمد على الحوار الذكى فى كثير من المواقف ، ففى آخر الفصل السادس من الرواية — ص ٦٩ — تقول السيدة ويمان —

— لماذا لا تتزوجينه ؟ .

— هل سنعود الى هــــذا الموضوع ثانيــــة يا أمى ؟ .

— أنا أقصد الآخر .

— اى آخر ؟ .

— وحدجتها أمها بنظرة عتاب .

— هل تخفين سرك على امك يا بنيتى العزيزة . تعالى ، اجلسى الى جانبى .

وجلست لورا على حافة سرير أمهــا بالقرب من المقعد وواصلت الأم حديثها :

— أنه يحبــــك ، وهو فتى مهــذب وسيم ، ولا شك عندى أنه سيسعدك .

— يحبنى ويسعدنى ! .

واتسعت حدقتا مسز ويمان دهشة :

— هذا ظاهر كالشمس كيف لم تتبينيه .

وقالت لورا شاردة البصر :

— يا أمى الحبيبة ، انه لم يطلب الزواج الى ، بل لم يصارحنى بحبه ولم يبد أى دليل عليه ، أنه لم يمسك حتى يدى فى يوم من الأيام .

واحتبست الــكلمات فى حلقهــا ، واغرورقت عيناها بالدموع . وبمثل هذا الحوار يسير المؤلف كاشفا عن حـــيرة لورا ، وتحفظ أحمد ، حتى تصارحها الآنســـــة منى أخت أحمد بحبه لها ، ويدور بينهما فى الفصل السابع هـــذا الحوار ص ٧٣ :

— أخى يحبك يا لورا ، حبا صادقا .

وسألتها لورا فى هدوء .

— هل صارحك بذلك ؟ .

— لا . أنت أدرى بطبعه ، ولكن وجهه يبوح دائما بما لا يبوح به لسانه .

تنهـــدت لورا ، وقالت بصوت شاعت فيه الحسرة .

— يبدو أن كراهيته للانجليز تفوق حبه لى .

وندرك من هـــذا الحوار الصاعد أن سبب تحفظ أحمد هو كراهيته للانجليز .

وهنا تظهر عقبة جديدة فى سبيل نماء هـــذا الحب الوليد ، وهو كراهيـــة أحمد للانجليز ، وتتضخم هذه العقبة عند اندلاع ثورة مصر فى عام ١٩١٩ ، حيث يأتى الانجليز بالفظائع ، ويقتلون زهرة أبنـــاء الأمة ، ويبلغ التأثر بأحمد ، درجة عالية كاد يعصف بحبه الوليد ، ولكن رسالة من لورا تأتيه مستنكرة هذه الفظائع ، يسر لها أحمد ، وتخفف من تأثره .

ولا تلبث هذه العقبة أن تذوب ، وترسب فى قلبه حتى تقوم عقبة جديدة ، أشد وأنكى ، هو ما لمسه أحمد من اختلاف فى الرأى والذوق بينه وبين لورا ، وذلك بعد ان نال اجازة الحقوق وأفتتح مكتبا للمحاماة ، فاستأجر شقة فى حى وطنى ، فتعترض لورا على الشقة وعلى الحى ، ويدور بينهما نقاش طويل ، يتجلى له فيه وجود برزخ بين العقلية المصرية والانجليزية . وقد سجل المؤلف هذا الحوار العاصف فى الفصل الخامس عشر ، ومما جاء فيه — ص ١٥٣ — قول لورا :

— لن تصلح هذه الشقة ولو طليتها بماء الذهب !

قال أحمد :

— ألست تغالين قليلا يا لورا .

فقالت فى لهجة الآمر .

— لابد ان تترك هذه الشقة ، وتستأجر أخرى لائقة .

— لا أستطيع فقد كتبت عقد الايجار لمدة عامين

— لابد أن تجد طريقة للتخلى عن هذا المكتب ، لابد من ذلك .

وقال يهمس لنفسه : أنها تريد أن تفرض على رأيها ، أنها تحاول أن تتحكم فى ، فهى لم تنس أصلها الانجليزى (ص ١٥٤) ولم تقف لورا عند هذا ، فى نقاشها ، بل تضمن نقاشها سمو حضارة الأوروبيين وثقافتهم على المصريين ، مما ألهب ثورة أحمد النفسية .

وهذا العامل الخلقى والمزاجى الجديد ، ظهرت آياته فى الفصل السابع والعشرين ، عندما كتب أحمد بحثا فى الاشتراكية ، فأزرت عليه لورا ، وسفهت ما ورد فيه من آراء وهذا العامل كما يقول المؤلف فى ص ٢٨٦ هو الذى صده عن لورا ، وصد قومه عن قومها » .

* * *

وفى بداية اشتغال أحمد بالمحاماة ، تتوثق معرفته بالمحامى النابه مصطفى لطفى ، الذى يخطب أخته منى ، وتتصل الأسرتان ، ويلمح أحمد وجها مصريا جذابا هو وجه رجاء ، بنت اخت مصطفى لطفى ، فيبهر بجمالها ويرقص قلبه لرؤيتها ، ويرى فيها فتاة أحلامه ، ويأخذ أحمد فى المقارنة بين رجاء ولورا ، فى فصول متتابعة ، لورا التى ضحت بخطوبتها من أجله ، لورا الانجليزية روحا وان تجنست بالجنسية المصرية ، لورا المفكرة المنطقية ، لورا التى تزهو بنفسها وببنى جنسها ، وتريد أن تفرض رأيها عليه ، وبين رجاء الجذابة البسيطة ، البعيدة عن التعقيد الفكرى والوجدانى ، حتى انتهى الى ايثار المصرية لأن زواجه بها يزيد مصريته توكيدا ، بل يزيده ارتباطا بوطنه بل حبا له كما يقول فى الفصل السابع والأربعين ص ٤٧٣ ، وبذلك حلت أزمة أحمد العاطفية ، وشعر بالدفء القلبى بعد هذه العواطف الباردة التى زعزعت حياته فترة طويلة .

أما لورا فقد بقيت طوال حياتها فى شد وجذب وأمل ويأس بقيت فى صراع دائم مع نفسها ، ومع البيئة التى تعيش فيها ، ومع أحمد ، ومع الظروف السيئة التى توالت عليها .

لقد كانت تعيش فى حياة أبيها هادئة ناعمة البال ، وبعد موته وتركها لخطيبها كانت تعتقد أنها سوف تستعيض عنه بحب احمد واقترانها به ، ولكن احمد كان متحفظا تجاهها ، وكان فى أحيان يثور لآرائها ، وينفر من زهوها ، وتقع واقعة جديدة فى حياتها تقلب اتزانها ، هى ان بائع البيت الذى يقيمون فيه ، يطالبهم بايجاره ، ويطلب طردهم منه ، وترفع قضية لاثبات ملكيتهم فيدعى محامى الخصم أن الثمن لم يدفع ، وان أباها كان مقامرا ، وأن الأقرار بالبيع كتبه موكله على مائدة الميسر عندما كسب منه مستر ويمان مبلغا كبيرا عجز عن دفعه ، فكتب الاقرار (ص ٢٩١) وأحيلت الدعوى الى التحقيق وشهد شهود زور بما ذكره وكيل الخصم ، وخسرت لورا القضية ، وهذه الواقعة جرحت كبرياء لورا جرحا عميقا ، فانهارت أعصابها ، وعبثا حاول أحمد تعزيتها ، والجهر بحبه لها بل الاقتران بها ، ولم يخف عليها ان أحمد يفعل ذلك بدافع الشفقة .

وتتوالى الويلات على لورا ، وتتمزق أسرتها ، فقد سافر أخواها جفرى وكلوديا الى انجلترا ، وضل اخوها رونالد الطريق ولم يعرف مكانه ثم قتل بعد ذلك ، وماتت أمها ، ومات كلبها العزيز - لاكى - وعميت لورا ، ولم تجد قلبا وفيا الا قلب منى ، ولم يعد يزورها أحمد ، الا لماما ، وكان آخر لقاء بينهما أن طبع على خدها قبلة عاطفة ، ولكم تأخرت هذه القبلة عن أوانها كما يقول المؤلف فى آخر صفحة ٤٩٨ .

هذا هو الخط العاطفى الذى ساد الرواية من أولها لآخرها ، والذى وفق المؤلف فى القاء الأضواء الكاشفة عليه ، ووصل الى نتيجة حتمية طبيعية موفقة ، كما أداه بطريقة فنية جديرة بالاعجاب .

وتلاحم مع هذا الخط ، خط فكرى ثان ، شمل جزءا كبيرا من الرواية ، هو بيان حياة أحمد « الفكرية ، ونشاطه الأدبى ، ونظراته الاجتماعية التقدمية ، فأحمد امتهن المحاماة ، ثم اجتواها ، لأنه لم يجد قابلية لها ولا استعدادا ، فتوجه بكل قلبه الى الأدب والى الصحافة ، وبنى مستقبله على عالم الكتابة ، فدبج الشعر ، وتلاه فى تهدج على لورا ورجاء ، وكتب المقالة الأدبية والاجتماعية ، وتحول فيهما ناحية جديدة ، فكتب عن الاشتراكية أو السوشيالية كما كانت تسمى فى ذلك الوقت ، كتب بحثا فيها ، لم يعجب لورا وعجب من صراحتها فى نقده ، ولكنه لم يعبأ ، واستمر فى ممارسة الادب ، فلمع اسمه وزاد فى الصحافة أجره ، ويبدو أن ما جاء فى الرواية على لسان احمد فى هذه الناحية الفكرية والأدبية ، هو ترجمة ذاتية للمؤلف ، ولكن يلاحظ أن المؤلف لم يمهد لهذه الأفكار الجديدة ، ويكشف عن بذورها فى نفسه ، كما لم يكشف عن الجو الذى دفعه الى الاشتراكية ، فالقارىء يجد هذه الفكرة مأخوذة من لورا التى قرأت كتابا فى هذا الموضوع ، وذكرت له بعض ما جاء فيه من آراء ، فراقت لأحمد .

فما ذكره المؤلف عن الاشتراكية لم يكتب كتابة خيالية كما يقتضى الفن الروائى ذلك ، بل ان المؤلف، أراد أن يكشف عن آرائه الذاتية فى هذا الموضوع ، أما عن فكرة التحرر الأدبى من سيطرة الثقافة الانجليزية ، فقد مهد لها المؤلف تمهيدا مناسبا ، وكشف فى الرواية عن رسالته الادبية ، وهى التجديد فى الأدب ، وبناء ثقافة عربية لها شخصيتها ، لا ثقافة منقولة أو مقبوسة من الثقافة الغربية ، ثقافة موجهة الى الشعب والى الطبقة العاملة المجدة ، على أن تصاغ مادتها صياغة أدبية جميلة تعكس حقائق الوجود الخافية فى صور قيمة .

* * *

وهذان الخطان العاطفى والفكرى فى الرواية سارا جنبا الى جنب ووفق المؤلف كل التوفيق فى بيان الخط الأول ، أكثر من بيان الخط الثانى ، بيانا روائيا فنيا .

وفق المؤلف فى بيان الخط الأول بالتقنية البارعة التى استخدمها فى بناء الرواية ، فاعتمد كما ذكرنا آنفا على الحوار المثقف الذكى النامى ؛ وعلى التنقل فى مجريات الرواية تنقلا فنيا سليما بمراعاة التقطيع الموفق بين الفصول ، والتساوق بينهما ، كما أحسن المؤلف فى ربط عواطفه وانفعالاته الحزينة أو المرحة ، بمشاهد الطبيعة ، وهذا الربط ملحوظ فى جل فصول الرواية ، وابتعد المؤلف عن الحشو والتفاصيل التافهة فى بيان الأحداث ، وصاغ الرواية كلها صياغة قوية مشرقة ، وأن كنا نلاحظ أن طائفة من عباراته او وصف مشاهده كانت تقريرية ، لا تصويرية ، ولو اتبع المؤلف الطريقة التصورية لكانت صياغته أدنى الى الاكتمال .

ومن قلب هذه المادة الروائية التى استعرضناها والتزمنا فيها ذكر بعض الشواهد من النص الروائى ، تتضح لنا جملة حقائق عامة وخاصة ، فمن الحقائق العامة :

١ - تعذر التعاطف الوجدانى بين المصرى أو الشرقى ، مع الغربى ، وبخاصة اذا اعترضت ظروف معاكسة كالصدام السياسى بين الأمتين التى ينتسب كل منهما اليها ، ٢ - ونماء صراع وليد جديد بين الفكر الشرقى أو العربى مع الفكر الغربى ، أو صراع أيديولوجى ، بين العربى

والغربى ، ومحاولة العربى التخلص من براثن الفكر الغربى وسيطرته التى دامت سنين وسنين ، لبناء شخصية له مستقلة عن الشخصية الغربية .

وينبع من هاتين الحقيقتين العامتين الكبيرتين ، ايثار العربى قوميته وحبه للوطن الكبير على اى حب آخر ، والاتجاه الى نوع من الاشتراكية مخالف للاشتراكية الغربية ، والعمل على ابداع أدب جديد له طابعه القومى والحضارى المميز ، وهذه الأهداف الثلاثة تنبثق من مجريات الرواية .

وتبقى حقيقة سيكولوجية على غاية من الأهمية هى أن العوامل التى صدت البطل المصرى عن الاقتران بالانجليزية ، ليس هو العامل الوطنى ، أو الخلاف الفكرى ، فقط بل هو عامل سيكولوجى عميق هوكبرياء البطل المصرى وزهوه وتعاليه بنفسه ، واعتداد الانجليزية برأيها وزهوها ، وتعاليها عليه ، ولن ينمو حب ، أو يقوم قران بين مثل هاتين الشخصيتين ، وهذا ما يتجلى لنا من قراءة الرواية فى استيعاب وعمق ، وهذه الحقيقة السيكولوجية الجوهرية لم يتبينها كثير من النقاد الذين كتبوا عن هذه الرواية .

فبعض النقاد عد العامل الوطنى هو العامل الجوهرى فى وقوع الخلاف بين بطلى الرواية ، وأخذوا يؤولون أحداث الرواية ووقائعها ، تأويلا نراه بعيدا ، فالبطل المصرى يرمز الى مصر ، والانجليزية ترمز لانجلترا ، وخسران الأسرة الانجليزية ملكية المنزل الذى كانت تقطنه ، رمز لضيعة الاستعمار الانجليزى فى مصر ، وتهدم أفراد الأسرة الانجليزية ، دلالة على تهدم الاستعمار الانجليزى ، وغير هذه الدلالات التى ازدحمت بها مقالاتهم .

ومن النقاد من حمل على المؤلف لانه رأى فى أحمد صورة من الأنانية ، والازدهاء البالغ ، وانه وقف موقفا غير محايد فى رسم شخصية أحمد ، والحقيقة أن المؤلف كان صادقا كل الصدق فى رسم هذه الشخصية ، بحنانها وسيئاتها ، فالمؤلف يعرف تلك الشخصية معرفته لنفسه ، وهى شخصية غير عادية ، شخصية عقلانية واثقة كل الثقة بنفسها ، وتنطوى على زهو بعيد .

وليس لدينا اعتراض على تصوير الشخصيات الرئيسية ، فقد صور المؤلف أبعادها الخلقية والفكرية والنفسية تصويرا سليما ، ولكنه أهمل البعد الجسمانى ، لتكمل الصورة ، فقد كان يروق لى أن أرى الملامح الجسمية أو الوجهية المميزة لأحمد ، وكنت أود أن أرى وجه لورا الانجليزية وأسمع صوتها ولهجتها ، وبعض لوازمها فى الحديث ، كما كنت اود أن اشهد طلعة رجاء ومنى ، واختلاف ملامحهما عن ملامح لورا ، ولكن المؤلف حرمنا هذه المتعة ، وترك هذا البعد مكتفيا بوصف سمات شخوصه وصفا عاما ، وهذه خسارة كبيرة كما كنا نود من المؤلف أن يلقى الأضواء على الشخوص الثانوية ، فقد جعل أغلبهم عصيا كما يقولون ، وهذه الهنات لا تقلل البتة من قيمة الرواية ، وما امتازت به على كثير من الروايات العربية ، فى التحليل العاطفى المتعمق ، وفى لواذ المؤلف بالفعل فى حل مشكلته العاطفية ، وفى التوجيه الى التفكير المستقل ، وفى تصفية الرواية من النزعات والبدوات الجنسية التى تزخر بها روايتنا العربية ، فليس فى هذه الرواية مشهدا جنسيا واحدا ، وهذا فى رأينا توجيه جديد الى رواية الطهر والقداسة ، هذا فضلا عن أسلوبها المشرق الذى نفتقد مثيله فى أغلب الروايات العربية ، ولهذه الميزات جميعا ، نعد هذه الرواية فتحا جديدا فى الفن الروائى العربى الناهض .

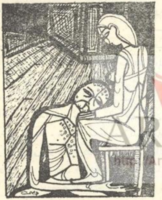
الأستاذ مصطفى السحرتى

رغبة تحت شجر الدردار

تأليف : يوجين أونيل

ترجمة : نور الدين مصطفى
مراجعة وتقديم : الدكتور على الراعى

الناشر : مؤسسة الخانجي بالاشتراك مع مؤسسة التأليف والترجمة ،
عدد الصفحات ١٧٤ ص ١٤×٢٠ سم
الثمن ١٠ قروش



لا يلبث الذى يقرأ هذه المسرحية او يشهدها ممثلة فوق خشبة المسرح أن يبشع مما تتلظى به من شهوة عارمة ، وأن يحار كيف يحكم معظم الذين أرخوا ليوجين أونيل أو نقدوه .. وهم أعظم مؤرخى المسرح ونقاده فى أمريكا وأوربا ـ بأن مسرحيته هـذه هى أعظم مسرحياته ... أو من أبدعها جميعا .. على كثرة ما كتب أونيل من الروائع الخالدة .

وقد قلنا فى المقدمة الطويلة لترجمة مسرحية أونيل : « الاله الكبير براون » وهى احدى حلقات سلسلة روائع المسرح العالمى التى تصدرها وزارة الثقافة ان أونيل كان يكتب مسرحياته وهو يصدر فيها جميعـا ـ أو فى معظمها ـ عن تجاربه فى الحياة .. وهى التجـارب التى ذاق من حلوها ومرها مالا نعرف أن أحدا من الادباء الكبار ذاق منه هذا القدر الكبير الطاغى الذى ذاقه أونيل .. ولا نستثنى من هـؤلاء الأدباء الـكبار أوجست سترندبرج نفسـه ذلك الذى كان أونيل يترسم خطـاه فى مذهبـه المسرحى ويسلك مسلكه فى الصـدور فيما يكتب عن تجاربه الخاصة .. وما أبشع هذه التجارب فى حياة كل من الكاتبين الكبيرين .. ثم فى تقليـــده فى المزج فى كثير من مسرحياته بين مذاهب عدة ، بادئا فيها بالمذهب الطبيعى القــاتم الميلودرامى الذى يتوخى فيه الكاتب ألوان الشـذوذ والانحراف وصور الحياة الوضـيعة التى تشـقى بهـا طبقة الحثالة من البشر بما تغص به تلك الحيـاة من ألوان الأمراض الأخلاقية والعلل الاجتماعية وقلة المبالاة بالقوانين والشرائع وآداب السلوك التى يأخذ بها المجتمع الراقى نفسه ، وغرق هذه الحثالة فى أدران وأدران من صنوف التهتك وعدم المبالاة نتيجة لعوامل مهمة من جملتها البيئة والوراثة واختلال الأوضاع الاقتصـادية وتخلف هـذه الحثالة البائســة عن ركب العـلم والحضارة والنور .

على أننا نضيف الى ما قلنـاه فى تلك المقدمة أشياء لابد منها لكى يخلو هذا الجانب الجنسى من أدب أونيل .. وهو الجانب الذى يعد بلا شك ثمرة من الثمرات المرة التى كابد منهـا الاديب الكبير أهوالا وأهوالا فى صغره وفى شـبيبته .. والتى كانت أصداؤها تتردد باستمرار فى معظم مسرحياته .. فمن ذلك :

١ ـ أنه نشأ نشأة مدللة فيها قدر كبير جدا من الاعزاز والاشــفاق .. فلقد ولدته أمه بعد

ثكبتين فادحتين عانت منهما فى روحها وفى جسمها مالا نعرف أن نساء كثيرات كابدت مثله .. لقد كان لها ولدان قبل أونيل مات أصغرهما بعد أن تركته مضطرة فى رعاية احدى قريبات زوجها مضطرة لكثرة رحلات هذا الزوج الممثل الكبير چيمس أونيل .. وكانت تحب هذا الغلام المتوفى بل تعبده .. وقد أورثها موته الذهول .. ثم لم تلبث ان اصيبت بسرطان فى ثديها استلزم البتر .. والبتر فى انجلترا – وليس فى أمريكا .. وكان هذا الحادث ضربة لجمالها الفتان تحملتها فى مصابرة ومغالبة لأحزانها .. حتى رأى زوجها لابد من غلام آخر ينسيها آلامها وينقذها من غمرة أحزانها فحملت .. وولدت يوچين الذى حرصت على رعايته بنفسها والسهر عليه ، وغمرته بما أشرنا اليه من اعزاز وتدليل .. ثم حدث ما تسميه دوريس ألكسندر – مترجمة حياة يوچين أونيل (١) – بالخيانة .. أما هذه الخيانة فهى فى نظر يوچين الحاقه بمدرسة مونت سنت قنسنت عندما بلغ السابعة من عمره ، وبقاؤه هناك بالقسم الداخلى ، وحرمانه مما كان ينعم به من رعاية أبوية .. ولا سيما امه الجميلة ذات الشعر الذهبى والحاجبين الأسودين والعينين السمراوين .. كما كان هو يصفها .. وكما كانت صورتها تغازله باستمرار وطوال عمره .. تلك الأم التى ارتبط بها قلب يوچين بعقدة أوديب .. والتى نلاحظ – ولا سيما فى هذه المسرحية – مسرحية رغبة تحت شجر الدردار – أن حبها ، ممثلا فى حب ابين لامرأة زوجة ابيه أبى – كان هو دائما الذى يفتح له ابواب الجنس كما سنبين هذا فيما بعد ..

لقد كان نفيه فى مدرسة مونت سنت ڤنسنت بعيدا عن أبويه الحبيبين .. محروما حتى من قضاء أجازات أعياد الميلاد معهما .. حادثا عميق الأثر فى نفسه .. حتى لقد قلب محبته لأبيه عداوة وبغضاء لزمته طوال حياته .. لأن اباه هو الذى دبر أمر هذا النفى ... هكذا تصور يوچين .. متجاهلا ما لم يكن منه بد من أمر التعلم ، والضرورات الملزمة التى يفرضها عمل أبيه بوصفه ممثلا وصاحب فرقة جوالة تطوف أرجاء الولايات المتحدة .

٢ – وكان ليوچين أخ أكبر يدعى چامى .. وهو اسم التدليل لچيمس .. أسمه الحقيقى .. أو چيمس الأصغر للتفرقة بينه وبين أبيه .. كان چامى هذا ولدا أسلمته نشأته للتلف ، وادى انغماسه فى فرقة أبيه الى اتصالات دنسة بينه وبين بنات الهوى اللاتى كن يترددن على الفرقة للقيام بالأدوار الثانوية (الكومبارس) .. ولم يكتف چامى بصلاته بهؤلاء .. بل لقد عرفته مواخير نيويورك كلها .. وجميع دور البغاء فى كل المدن التى كانت تزورها الفرقة ... وهكذا سقط چامى ومسه التلف .. ويا ليت الأمر اقتصر عليه فقط .. بل لقد جر أخاه .. يوچين أونيل كاتب المستقبل العظيم .. الى تلك الدور الحمئة وهو لما يزل عجينة لدنة .. وفتى يافعا غض الاهاب .. أذ كان يصحبه معه اليها .. وكان چامى يمقت اباه أيضا لكثرة لومه له وتثريبه عليه لمسلكه الشائن .. فانتهز فرصة كراهية أخيه يوچين لأبيه بسبب نفيه الى مدرسة مونت سنت قنسنت وراح ينفخ فى نيران تلك الكراهية حتى بلغت مداها واستعر أوارها .. وأين .. فى جميع دور البغاء والخنا اللاتى كان يصحبه أخوه هذا الشيطان اليها .. ومن هنا فتحت دنيا الجنس ليوچين أونيل ابوابها على جميع مصاريعها .. حتى أصبح الخبير بسيكلوجية الخطايا والبغايا والساقطات .. ممن لا تكاد مسرحية له تخلو من واحدة منهن .. أو الطواف بواحدة منهن او ممن هن على شاكلتهن ..

٣ – وتذكر دوريس الكسندر أن يوچين بعد أن الحقه أبوه بأكاديمية بتس Betts ، (وهى مدرسة ثانوية تقريبا) ثم بعد أن غادر تلك المدرسة الى جامعة برنستون وقعت فى يده مصادفة بعض الكتب التى عثر بها فى مكتبة بعض معارفه ، فاثرت فى نفسه تلك الكتب تأثيرا جذريا .. وذلك لأنها صادفت بطبيعة مادتها هوى فى نفسه التى كانت تنضح بمثل تلك المادة .. ولتقارب الأفكار والفلسفات الهادرة التى كانت تحتويها تلك الكتب ولا تفتأ ترددها ..

(١) The TemPering of Eugine ON'eillB وتقوم الآن بترجمته (د)



ومن أهم تلك الكتب قصة صورة دوريان جراى لأوسكار ويلد .. وهى القصة المليئة بالنظرات الفلسفية العميقة الثورية .. فضلاً عن جانب الشذوذ الجنسى الذى تمسه مساً تحليلياً عجيباً .. وقد عكف يوجين على القصة يقرؤها ويتمعن ما فيها وكلما انتهى منها عاد اليها ... ثم انتقل منها الى أوسكار ويلد نفسه ينظر فى مأساة حياته .. والأساس الخلقى الذى تقوم عليه تلك المأساة .. مما تحدثنا عنه فى مقدمتنا لمسرحية « أهمية أن يكون الانسان جاداً » من سلسلة روائع المسرح العالمى .. لقد كان يوجين يرى فى صورة دوريان جراى . وفى أوسكار ويلد .. صورة منه هو نفسه .. صورة من هذا الانفصام الذى تحدثنا عنه والذى يتضح فى معظم مسرحياته ..

ثم وقع ليوجين كتاب شو العظيم « لباب الابسنية The Quintessence of Ibsenism » وهو الكتاب الذى فتح له آفاق الفكر الحديث وقذف به الى زوابع آراء ماركس وانجلز وكروبوتكن « كما زوده فى الوقت نفسه بلمحة من ذلك الايمان الصوفى فى قوة حيوية دافعة متربصة وراء الحياة الفردية التى وجدها شيئاً جذاباً جاذبية غريبة » ثم شاءت المصادفات وهو غارق فى كتاب شو هذا أن تلم شمله — وهو فى مدرسة بتس ، بشمل طالب متحرر — او قل متحلل — يدعى هاينى شليب ، ابن صاحب قهوة وبار الباپست المجاورة لمسرح الماچستك فى حى كولمبس بنيويورك .. فكان يصحبه كظله الى جميع المسارح وبيوت اللهو ولا يكاد يكلفه شيئاً .. لأن هاينى كان يستطيع الحصول من أبيه على تذاكر مجانية لغشيان هذه الأمكنة .. وكان الفتى كما ذكرنا فتى متحللا ينهمك على الملذات انهماكا قاتلا .. وقد كرع معه يوچين كما كرع مع أخيه چامى من قبل وكما ظل زمانا طويلا يكرع معه فيما بعد ..

ومن كتاب شو شرع يلتهم جميع مسرحيات ابسن ولا سيما بعد أن شهد عدداً من هذه التمثيليات يعرض على بعض مسارح نيويورك لأول مرة هناك ... ثم سمع بسترندبرج فغرق فيه لأذنيه .. وكثير من مسرحيات سترندبرج تحوم حول البغاء والخيانات الجنسية ... وقد لفته كل من ابسن وشو وسترندبرج الى الكتاب الثائرين من أدباء أوربا .. ولا سيما ألمانيا والنمسا .. وعلى رأس هؤلاء هاوپتمان .. ثم أكبر الكتاب المسرحيين الجنسيين ڤدكند Wedekind .. ذلك الذى كان يجد فيه يوچين — كما كان يجد فى سترندبرج — كل ما يوافق مشربه .. ويجارى الحياة التى كان يحياها .

وقرأ كذلك قصة « مدام بوڤارى » لفلوبير .. والتى نجد من بطلتها ظلالا واسعة فى غير مسرحية من مسرحياته التى يعالج فيها مشكلة الخيانات الزوجية ... كما قرأ قصة د . هـ . لورانس : « عشيق الليدى شاترلى » فى نسختها غير المهذبة . وكانت الصبغة السيكلوچية التحليلية التى تتسم بها جميع هذه القصص والمسرحيات تستهويه وتلذه .. ومن ثمة شغف بفرويد ومن اليه من أقطاب العلماء النفسيين .

ثم أطلعه أخوه چامى .. وهو فى دوامات تلك الثقافات كلها .. بتلك الجائحة التى اجتاحت

والدته .. حينما أصيب ثديهــــا بالسرطان ، وحينما اضطرت الى تلك العملية ، التى حقنت بسببها بقدر كبير من المورفين .. مما أدى الى اصابتها بادمان ذلك المخدر الملعون .. وما نشأ عنه لهذه الأم المسكينة من تلك الحال التى تقرب أن تكون جنونا ... ولم يشأ يوچين ان يصدق نبأ تلك الجائحـــة .. « وبالرغم مما اعتراه من فزع فقد صاغ الأمر كله فى صورة أسطورة حاول فيها ما استطاع أن يقى أمه من الكراهية التى كان يشعر بها نحو أبيه .. لقد كاد كلما فكر فى أمه يحب أن يراها فى صورة أميرة مسحورة .. أميرة نقية لطيفة لم يمسسها سوء – الا أنها مع ذلك أسيرة مستعبدة فى قصر مارد شرير » ونحن نرى هذا الفيض من الكراهية للأب .. والمحبة الناعمة المسترخية للأم ، يتردد فى الكثير من مسرحيات أونيل وقصصـــه الأولى .. ونراه بخاصة فى هذه المسرحية ·· « رغبة تحت شجر الدردار » التى يغنيك ملخصـــها الذى سوف نقدمه لك عن السبق بذكره هنـــا .. ونراه فى مسرحيته « الاله الكبير براون » على الصورة التى لخصناها بها فى مقـــدمة العدد ٤٤ ... ونرى محبته لأمه .. تلك المحبة الطاغية الأسطورية .. واضحة بصورة مباشرة فى مسرحيته « رحلة يوم طويل فى جنح الليـــل » حيث يصورها فى صورة فتاة ساذجة مترهبة .. خدعوها بتزويجها .. الا أنهـــا لا تزال مع ذلك طفلة غريرة ونقية .. وأما عذراء » .

وتعلل دوريس الكسندر انحراف يوچين عن هذا الحب العاوى العذرى الذى كان ينطوى عليه لأمه الى ذلك الحب الجنسى القذر الذى لم يكن يبارح خيـــاله قط وهو يؤلف روائع مسرحياته بما مر به من التجارب الجنســـية التى أغرقه اخوه چامى فى حماتها ، كما أوقعـــه فيها أيضا صديقه هاينى شليپ ... فتقول متسائلة :

« ... فماذا كان وقع هذه التجارب كلها على صبى صغير حساس ، تشكلت أفكاره عن الحب وفقـــا لدستور الشرف والأمانة الذى صاغه له أبوه .. ووفقا لما كان يولى أمه محبة وعبادة .. ووفقا للعواطف الرقيقة المعلاة التى امتلأت بها نفســـه من قراءة القصص الرومنسية فى أول ما قرأ ؟ . لقد كانت النتيجـــة بالطبع الانفصام والانشطار .. وتفتت نفس يوچين وتدميرها .. انه لن يفلح مهما حاول أن يفصل بين آرائه عن الجنس ، وبين تجاربه الأولى فيه ، بوصف هذه التجارب ثورة متعمدة ضد الحب بوصفه نوعا من أنواع الفسق القذر بالاكراه ...

« ان يوچين عنـــدما التحق بعد ذلك بجامعة هارڤارد كان لا يبـــالى أن يتحدث الى أصدقائه الطلبـــة عن التفصيلات المثيرة المغرية لتجاربه المختلفة بينه وبين «البغايا الشبقات» والعاهرات الفـــاجرات اللائى لا يشبعن من الاتصـــال الجنسى ... ومما يرويه صــــديقه كوروين ويلسن زميله فى الجامعة قوله ... « ... الا ان المهم فى هـــذه التجارب المثيرة التى مر بهـــا يوچين هـــو دوره الســـلبى الخالص فيهـــا جميعـــا .. ! انى أعتقد أن هـــذه الوفرة من تجارب الصبى مع النساء بتلك الطرق الخالية من الناحية النفسية من مغريات الجمال ، والتى كانت شـــيئا وضيعا ومخزيا ومضيعا الشرف والكرامة .. أقول : ان هذه الوفرة من التجارب الجنسية قد لونت نظرته الى النساء برمتها .. وموقفـــه من النساء يشـــبه الى حد كبير تلك الصيحة المحنقة المليئة بالسخط والتى يرسلها الرجل الذى يشكو من المرأة فيقول : « انها مصدر عدواى بهـــذا الزهرى ! ... لقد كانت ليوچين آراؤه الهابطة عما تستطيع المرأة الغزلة المفرطة فى أمور العشق والهيام أن تفعله مع رجل سلبى لا ارادة له ولا عزم .. ولقد كانت حكايات يوچين تنتهى دائما بالمرأة التى تأخذه على غرة لتشفى منه جوعها الجنسى ...

« لقد أصبح الجنس فى نظر يوچين (وبخاصة كما تصوره العـــاهر) رمزا للثورة على الحب – الحب النقى الخالص من الشوائب الذى كان يشعر به نحو أمه – كما أصبح رمزا للانتهاك الروحى ·· وبالأحرى ·· بالاغتصاب ·· ونحن لا ننفك نجد هـــذه الروابط الذهنية الثنائية – أو المزدوجة – مرة بعد مرة ، وفى وضوح وجلاء

فى كثير من تمثيلياته . ففى مسرحيته : « آه من الوحشـــــة Ah Wilderness » يؤمن ريتشـــارد فى ثورته على حبه النقى الخالص بأن حبيبته قد خانته .. ومن ثمة يرجع الى تلك المرأة البغى التى تلقاه بأبشع صـور التبسط واشنع صور التحايا والترحاب .. « فهى تتلوى فى حجره ، وتتثنى فى حضنه » بما لا يخفى أنهـا انما تنشد منه دولاراته الخمسة .. وليس سواد عينيه ! .. ثم تتركه بعد هذا وهو يشعر بأنها « كانت امرأة قذرة ، بل تجتمع فيهـــا قاذورات الدنيـــا بأسرها ! » .

« ونجـــد مثل هـــذا أيضـا فى مسرحيته « الملتحمون Welded » وفى مسرحيته : « أيام بلا نهـــاية Days Without End » ، وكلتـــا المسرحيتين تعالجـــان الثورة على الحب النقى الخالص مباشرة ، وفيهما يصور لنا يوجين اونيل هذه الثورة فىصورة التجربة الجنسية البشعة . فهـــذا ميتشل كيب فى مسرحية « الملتحمين » يهرب من فوره الى امرأة عاهرة حينما يهرب من حبيبته ، ليقول للعاهر ! « ان لك من السلطان والحق ما تقتلين به الحب ! انك تســـتطعين ارواء الكراهيـــة حتى تشتفى ! » . وفى « أيام بلا نهـــاية » يستسلم جـون لقنج للمحاولات الجنسية المغثية التى تنصبها له زوجة صديقه لا لشىء « الا لـكى يقتل الحب » ثم يخرج من عندها وقد بدا عليه الغثيان والاشمئزاز ..

« والربط الذهنى بين الجنس وانتهاك الحب يؤدى الى هذا التصوير العجيب للحب الجنسى فى تمثيليات أونيل .. انه يربط بين الحب وبين الأم .. أو بين الأم وبين الحب النقى الـــذى لا تشوبه شائبة .. ومن ثم كانت نساؤه فى كثير من الأحيان يخضعن – ولا بد – لنوع من أنواع التعرف الروحى .. أو تحقيق ذواتهن تحقيقا روحيا .. من حيث يكن امهات قبل أن يستطيع أبطاله تقبل حبهن ... وهذا يتجلى فى مسرحيته هذه : « رغبة تحت شجر الدردار .. فقبل أن يستطيع ايبين Eben أن يبـــادل زوجة أبيه آبى حبـــا جنسيا بحب مثله نراه فى المنظر الثالث من القسم الثانى من المسرحية يعود الى ذكريات أمه المتوفاة وحبه الشديد لها .. ولا تزال آبى التى هى زوجة والد ابن والتى تريد أن تحمل ولو من ابن زوجها حتى تضمن أن يوصى لها بالمزرعة .. لا تزال آبى توهمه بأن صوت أمه يناديه بأن يحب هـــذه المرأة آبى .. وأن يهبهـــا نفسه وروحه ودمـــه .. وما هو أكثر من النفس ومن الروح والدم .. لكى ينتقم لأمه المتوفاة من أبيه الحى .. ويستسلم ابن لاغراء زوجـــة أبيـــه .. وتكون الجريمة .. وتحمل الزوجة الثمرة الخائنة من ابن زوجها الشيخ ... انها تحمل منه بعد أن توقظ فيه حبه القديم لأمه .. ثم تنقل هذا الحب البرىء الطاهر الى شبق جنسى آثم تكون هذه نتيجته .. وبعد أن توهمه بأنها تحل فى قلبه الآن محل أمه ... فهنا فقط يستطيع ان يقدم على هذا الاتصال الجنسى .. وبالأحرى .. حينما تظهر المرأة بمظهر الأم .. ففى هذه الحالة فقط يمكن أن يصطبغ الاتصال بصبغة الحب .

« وتتكرر الفكرة نفسها فى مسرحيته : « القمر لابن الســـفاح Moon for the Misbegotten » حيث نلاحظ أن قداس يوجين أونيل الموسيقى على روح أخيه جامى ، وان كان على التحقيق مقصودا به وجه جامى ، الا أن الأم وحدها هى التى تفسره على أنه حب ، ومن هنـــــا يصبح الاتصال الجنسى انتهاكا لحرمة الحب ... لقد زنى جيمس تايرون بشقراء قذرة طيلة الليالى التى كان القطار يحمل فيها جثمان أمه المتوفاة الى مدينة نيويورك .. وذلك بوصف هذا الزنا انتقاما من أمه لهجرها اياه وتركه وحيدا .. ولم يكن يســـتطيع هـــــذا الاتصال القـــذر بجوسى الا عندما كانت تظهر فى عينيه بمظهر أمه ، وعندما كانت تسمح له بضم صدره الى صدرها ليصرخ قلبه معلنا التوبة والانابة الى هذا الصدر ، وذلك فى حالة واحدة فحسب .. أى حينما تتغشاها بركة الأم ، الا أنه لم يكن ثمة أى توافق أو تسوية بين الجنس وبين الحب ، فحينما كانت جوسى تقوم بمغازلاتها الجنسية لجيمس تايرون كان هو يعاملهـــا معاملة تنبض بالحقـــد والكراهية بوصفها بغيا عاهرا .

وهذا الانفصام بين الحب وبين الجنس يقع فى كثير من تمثيليات أونيل .. وهو واضح فى تمثيليته هـذه .. كما يتضح فى تمثيليته : « الاله الكبير براون » التى لخصناها للقراء فى مقدمة ترجمتها فى سلسلة الروائع .

ويتجلى هذا الانفصام نفسه فى مسرحيته : « دينامو Dynamo » ، حيث نرى الأم العظيمة للحياة الأبدية ، وهى المثل الأعلى لحب ربين لأمه ، تريد ، فيما يظن ربين ، « أن يحبها رجل بعينه من الرجال حبا نقيا لا تشوبه شائبة » .. وهو يعتقد ان اتصاله الجنسى بآدا يقف حاجزا بينه وبين حبه للربة العظيمة الأم .. ومن ثم نراه ينبذ آدا أولا .. ثم يعود فيحاول التوحيد بينها وبين الأم .. وذلك بجعلها تصلى لدينامو .. « بذراعيك اللتين تشبهان ذراعيها وهما ممدودتان للقائى » .. وفى النهاية .. وبعد أن يطلق العنان لاشتهائه آدا .. نراه يتمتم : « أماه .. لقد خنتك .. وشجبت عليك » وهنا نراه يقتل آدا « رمز الشهوة الجنسية » لكى يكسب حب الأم النقى الخالى من الشوائب الجنسية ..

وهذا هو ما نلمسه فى هذه المسرحية « رغبة تحت شجر الدردار .. حينما نرى ابين يفيق من سكرة الجنس ليبلغ البوليس ليقتص من قاتلى الطفل البرىء .. وحينما يضرع الى روح والدته المتوفاة طالبا منها النجدة والمخرج مما تردى اليه من الاثم بمقارفة الجريمة الجنسية الخسيسة مع زوجة أبيه .. وأين ؟ .. فى الغرفة نفسها التى توفيت فيها أمه من قبل .

ونحن حين نلاحظ هذه الثنائية فى شخصية يوجين أونيل .. هذا الانفصام العجيب الذى يجعل منه روحين فى جسد واحد .. لا يصعب علينا تعليل تلك الظاهرة من ظواهر الازدواج الفكرى والعاطفى .. فيوجين الملك الطاهر .. أو الحمل البرىء ، هو يوجين الطفل الذى أحب أمه وهام بها ثم حزن عليها ورثى لما أصابها .. وظل يقدس ذكراها فى جميع ما كتب .. أما يوجين الشيطان .. فهو يوجين الذى صنعه أخوه چامى وصديقه هابنى وصبغته المواخير بما فتحت له من خبايا الجنس .. وما تصوره فى أبيه ـ هذا الكبش المظلوم .. أو غير المظلوم .. ومن قسوة وعتمه وحيوانية .. ونقول حيوانية لأن الوالد الممثل الكبير « چيمس أونيل » لم يكن مبرأ مما يشين ، ولا سيما قبل أن يتزوج أم أبنائه هؤلاء .. لقد كان رجلا ذا فتكات مثل چامى ومثل يوچين ايضا .. وقد كان له ابن من السفاح سبب له كثيرا من المتاعب والمشكلات القضائية ، هو وأمه التى فتك بها چيمس ... وقد كان ابن السفاح هذا .. وأخو يوچين .. يحتل جانبا كبيرا من تفكير أخيه يوچين .. بل كان من علامات الطريق فى تفكير الكاتب العظيم الذى لم يكتب شيئا الا على ضوء تجاربه ، وفى ضوء ما قرأ ودرس من الكتب التى أشرنا الى بعضها هنا ، وذكرنا الكثير منها فى مقدمتنا لمسرحية « الاله الكبير براون » ... ولعل الذى قرأه فى كتاب نيتشه « هكذا تكلم زرادشت » والذى عثر به فى مكتبة بنيامين تكر كما عثر بصورة دوريان جراى ولباب الأبسنية ، وعشيق الليدى شاترلى .. وغيرها .. لعل الذى قرأه فى كتاب نيتشه هذا هو الذى الهب فى نفسه كوامن الشجن هذه .. اذ وجد فيه « كلاما يعبر عما تجيش به نفسه من كراهية لهذا القطيع البشرى المتماثل المتشاكل .. كما وجد فيه صورة مفككة مهوشة للعظمة الانسانية .. ورأى فيه كونا معقولا وذا مغزى ليحل محل هذا العالم الهشيم المتفتت الذى يمثله ـ فى نظره ـ مذهبه الكاثوليكى ... الذى هجره فيما بعد .. لقد ظل يتخذ من كتاب نيتشه انجيلا يعكف عليه من حين الى حين .. ولم يفارقه قط .. ولم يكن ينسى قول نيتشه .. وكأنه يخاطب يوچين بالذات : « حذار من المفكرين التافهين الذين يدعوهم الناس « العدول الأخيار » الذين وضعوا للدنيا فضائلها التقليدية التى تواضع عليها الناس .. انهم يكرهون الشخص الفذ المتفرد .. فيا أيها الانسان الفريد الفذ .. انك لتسلك سبيل الموجد الخالق .. انك لتخلق لنفسك اله من شياطينك السبعة .. فاخلق لنفسك القيم التى ترضاها ! » .

وهكذا راح يوچين ، على ضـوء ما قراه من كلام زرادشت يخلق قيما جديدة وعالما جديدا .. ولكن ، هـل نجح ؟! ... وهل نجح الا بمقدار ما نجح أستاذه ستردنبرج ، واستاذه اوسكار وبلد ، وأستاذه نيتشه .. وأساتذته الآخرون !

وبعـــد .. فهذه لمحة خاطفة على الناحية الجنسية من مسرح يوچين أونيل كان لابد من اثباتها فى كل هـذا الايجاز لنزيل ما عساه يعلق بذهن القارىء ، حينما يفرغ من قراءة مسرحية « رغبة تحت شجر الدردار » من تصور أن اونيل كاتب متهتك أو لا يرعى حرمة الفكر .. كلا .. فقد أصبح عالم الجنس فى المسرح ، منذ أن فتح مغاليقه ڤدكيند وستر ندنبرج ومن ذكرنا ومن لم نذكر من كتاب المسرح الحديث ميدانا خصـــبا تجوب فيه الأقلام مجالات النفس الانسانية التى لا مراء فى أن الجنس من اكبر حوافزها ... بل هو اقواها فى رأى فرويد ـ والفكر الحديث لم يعد بعد تلك النعامة التى تدفن رأسها فى التراب كلما ارتابت بعدو أو واجهت خطرا .. ولم يعد بعـــد ذلك الطفل الذى يخجل من مجرد ذكر العورات المستورة لشدة ما يجد حوله من حرج لذكرها ، واشــتداد فى تحريم الخوض فيها وفى الكشف عن أسرار ما وراءها من خفـــايا العالم الجنسى الرهيب .. مصـــدر كل الانحرافات والبـلايا .. بقـدر ما هو مصـدر كل الفضائل والمثل .. اننا فى عهد ثورة .. ولا نقول اننا فى عهد نهضـــة .. لأن الثورة أشمل من النهضة واعم .. واذا كان ديننا يعلمنا انه « لا حياء فى الدين » فكيف نضيع على أنفسنا تلك الرخصة الثمينة فنستحيى أن نترجم جميع مسرحيات اونيل وڤدكند وستردنبرج ومن اليهم من كتاب هذا الميدان الجديد .. ونحن حين نترجمها انما ناخذ بمبـــدأ « لا حياء فى الدين » .. والدين هنا مقصود به العلم والتبحر فيه والوقوف على اسرار المعرفة التى لم نكن نعلمها ... وطلاب العلم غير طلاب التهتك والاباحية .. ومسرحيات اونيل تغزو الدنيا كلها اليوم .. والرجل حينما يخوض بنا فى عالم الجنس انما يخوض بنا فى دنيا العلم والمعرفة .. واونيل فى ذاته معجزة كبرى .. لأنه ـ وهو من عرضنا صورة موجزة من حياته وتجـاربه فى دنيا الجنس ـ لم ينته تلك النهاية المحزنة التى انتهى اليها كثيرون من المـــذهب الطبيعى امثال جى دى موپاســـان والأخـــوين دى جـــونكور والفـــونس دوديه ود ٠ هـ ٠ لورانس ممن ماتوا مسلولين أو ذهبوا ضحية للاذهم الهابطة .. بل لقد عاش الرجل زوجا كريما وانتج انتاجا ذهنيا عبقريا رفع به راس المسرح الامريكى ، بل انشـــاه انشاء .. وذلك بالرغم من حيـــاته الأولى التى كانت سلسلة من التجارب المرة انتهت اخيرا بما حدث لأبيــه من انجابه ولدا من السفاح بعد اتصاله باحـــدى المعجبات .. لكنه كان أكرم من ابيه واشــــد انسانية .. اذ لم يبال أن يتزوج بالفتاة ولم ينبذها كما اراد أبوه منه أن يفعل .. وكما فعل هو .. وكما اقترح عليه من شرائها واخماد أنفاس الفضيحة بالمال .. لا .. لقد كان يوچين أصبح ضميرا خالصـــا .. ولقد كان أدرك انه موشـــك أن يصبح أديب أمريكا الذى سوف يملؤها ويملأ الدنيـــا كلها أدبا جديدا وفكرا ثائرا .. وان نبع هـذا الأدب وذلك الفكر من دنيا الجنس .. ذلك الغول الذى يفتـــك بنا وندعى مع ذاك أننا قديسون .. كبرا ونفاقا ..

وتتلخص المسرحية ـ أو الميلودرامة ـ فى أن هـــذا الرجل اليهودى المادى الذى لا قلب له افرايم كابوت الذى تزوج زوجة لا مال لهـــا وانجب منها ولدين هما سيميون وپيتر يرى الا بد من زواجه من امراة اخرى ذات مال .. لأن هذه أيسر طريقـــة فى نظره لاقتناء الثروة والضياع ، .. ولا يتردد افرايم طـويلا .. بل نرى زوجته تموت فجاة .. وفجأة يتزوج مرة ثانية من فتاة تأتى له بالضيعة التى كان يحلم بها .. وبغلام ثالث هو ايبن بطل المسرحية .. لكن الضـــيعة التى أتت له بها زوجته أم ايبن تكون ارضا جرزا وتربة صلبة لا تأتى بخير .. لكنها أرض فى مقاطعة نيو انجلند ذات المستقبل .. ومن هنـــا لا يهم ان تكون الأرض بكل تلك الصلابة .. ثم هى أن تكن أرضا صلبة فافرايم

نفســـه رجل صلب .. وربه نفسه .. رب اليهود كما يؤمنون به رب صلب يكره الطراوة ويمقت الليونة .. ولعل افرايم كان يفرض أيضا بأن ربه لصلابته رب خال من الرحمة .. ولذلك كان هو نفسه رجلا شكسا وجبارا عتيا لا يعرف الرفق فى أى أمر من أموره .. وقد ســـلط نفسه لهذا السبب على تلك الأرض الصلبة ، كما سلط عليها اولاده جميعا .. ولا سيما سيميون وپيتر ، على تربتها يضربانها بالفاس ويشقانها بالمحراث ليل نهار .. بل لقد سلط عليها زوجته الجديدة التى أتت له بها .. وكانت الزوجة البائسة كلما أجهدها العمل ونال منها التعب اتهمها بأنها امرأة لينة وذات رخاوة ... وليست من طينته وطينة ربه .. تلك الطينة الصلبة .. ولما شب ابنها ايبن كان أبوه لا يفتأ يتهمه أيضـــا بانه ابن أمه وشبيهها ليونة ورخاوة ... وهكذا ضــــاق به أبناؤه الثلاثة وراحوا يستهزئون به ويسخرون منه .. بل أخذوا يحتقرونه لشدة ما كان يستعبدهم فى فلاحة تلك الأرض الجبوب النــكدة طيلة ثلاثين عاما ماتت خـــلالها زوجة سيميون من طول الضنى والجهد .. وها هما هذان سيميون وپيتر • يفكران فى الرحيـــل الى الغرب .. الى كاليفورنيا .. حيث الأرض اللينة الخصبة المعطاء .. والثروة التى تنتظر الأيدى العاملة .. لكن پيتر يقول انه يعز عليه أن يرحل دون ان يحصـــل على ثمن كده فى تلك الأرض المسعورة التى جعلها بكده وكد أخيه جنة دانية الثمرات .. وهو لهذا يتمنى لو مات أبوه .. او استطاع رفع دعوى للحجر عليه .. وكذلك يتمنى ايبين نفسه .. ايبين الذى كان يرى أن الأرض كلها ارضه .. لأنها أرض أمه .. بل هو يشتد فى كراهيته لأبيه حتى لينكر انه أبوه .. لأنه لا يشبهه .. ولأن أباه .. ان كان أباه .. هو الذى قتلها .. قتلها لأنها كانت امرأة طيبة . وايبين لذلك لن ينسى أن يقتص لها منه .. وهو يعتب على أخويه لأنهما لم يحولا بين أبيه وبين أمه .. بل تركاه يعذبها ويضنيها حتى ماتت وايبين لم يتجاوز الخامسة عشرة .

ولم يكن الأولاد الثلاثة ملائكة .. بل لقد كان الشيطان الذى هو أبوهم قد أسلمهم لربه الذى هو الشيطان مفيستو فيلس نفسه .. لقــد كان ســيميون وپيتر يترددان على امرأة بغى فى القرية القريبـــة تدعى مينى .. فلما شب ايبين وفطن الى ما يذهبان الى القرية من أجله لم يلبث أن عرف المرأة وفاز بها من دونهما .. او هكذا خيل اليه ! ولعلك تعجب ان سيميون وپيتر كانا قد استخلصا المرأة لنفســيهما من براثن أبيهما الشـــيطان الذى كان يظن أنه فارسها الأول والأخير ! .

وبينما الأولاد الثـلاثة يتفكهون بهذا الحديث اذا ايبين يقول لأخويه ان لديه نبأ مهما لهما .. واذا هو يخبرهما بأن أباه قد تزوج الزيجـــة الثالثة .. امرأة جميلة فى الخامسة والثلاثين .. بينما الأب الشيطان فى الخامسة والسبعين ! ... انهـــا امرأة من نيودوڤر ... وهى امرأة ذات ماض .. « وقد صادت الرجل الشيخ .. بل الشيطان الذى خرج من الجحيم ، والبغل العجوز .. لغرض فى نفسها .. وهو قد أقدم على هذا الزواج نكاية فينا .. »

ولما يصر سيميون وپيتر على السفر ولو مشيا على الأقدام الى كاليفورنيا هربا بوجهيهما من ذلك الأب الملعون يشـــجعهما ايبين على ذلك لغرض فى نفسه .. ويعرض أن يشترى منهما نصيبيهما الموهوم فى مزرعة أبيهما .. حتى تئول اليه المزرعة كلها آخر الأمر .. أما من أين أتى ايبين بالمال ... فيقول انه استولى عليه مما خباه أبوه وسرقه من مال أمه الذى هو ماله ! ويوافق الأخوان على البيع .. ويقبضان الثمن ..

ثم يعود الأولاد الى حـــديثهم عن الزوجة الجـــديدة وعن مينى التى يسأل سيميون أخاه ايبين عما اذا كان يحبها فيقول : « أحبها ؟ .. ومـــا الحب ؟ اننى لا أبالى مطلقـــــــا بتلك الأســـطورة .. اننى لا يهمنى من أمـر مينى الا قوامها الملفوف الدافىء .. والمسألة انها كانت ملك الوالد العجوز .. أما الآن فهى ملكى .. انها ليست امرأة سيئة .. وانا أراهنكم ان فى

العالم من هى شر منها واشد سوءا .. ولننتظر حتى نرى تلك البقرة التى هام بهـا العجوز الملعـون .. واكبـر ظنى انهـا سوف تفوق مينى » .

وتحضر آبى .. الزوجة الجديدة .. ويقدمها افرايم كابوت الى أولاده قائلا لهم انهـا أمهم الجـديدة .. وتنظر آبى الى سيميون وبيتر نظرتهـا الى زوج من الخنازير .. وينظر اليها سيميون نظرة تفيض احتقارا ثم يبصق على الأرض .. أما ايبين فيكون داخل البيت .. واذا قال لهـا أخـوه بيتر ان من المستحسن الا تقول له ان هذا البيت أصبح بيتها قال لهـا افرايم ان لها الا تبـالى بايبين .. لأنه ليس الا فتى ابله غبيـا كأمه تماما .. فتى رخو ساذج ... ولـكن سيميون يقول لأبيـه « ان ايبين صورة منك طبق الأصل .. صلب ومر كشجرة الجوز ! وأنتما كلبان .. وسياكلك أيها العجوز ! » .

ويسفه سيميون وبيتر على أبيهما وعلى زوجه الجديدة .. ويعلنـانه بأنهما ذاهبان عنه الى كاليفورنيـا حتى لا يمسا ذهبه القذر الملوث بالخطيئـة .. وحتى لا يغتصبـا تلك الزوجة اللعوب .. فاذا لعنهما ردا اليه اللعنة أضعافا : « اليك أنت أيهـا المقتر العجوز .. يا مصاص الدماء .. » .

ويقذفان حجرة العروس بالحجارة فيحطمان زجاجها .. ويرحلان بنفسيهما الى الحرية .. .. الى الكسب الحلال ..

وتفرح آبى برحيلهما .. والخلاص منهما .. لكنها لا تكاد ترى ايبين حتى تجن به غراما .. انها تحقق فيه كالتى توازن بين شبابه النضر ، وبين شيخوخة أبيه الفانى .. واذا قالت له انها أمه الجـديدة قال لها .. « كلا .. وعليك اللعنة ! » لكنها تتلقى تلك التحية وهى تبتسم بعينين تطل منها كل روحها .. وكل شهوتها .. وهى تقول له انها تكون له هنـا أما .. لكنها ستكون له صـديقة .. أو ما هـو اكثر من الصديقة .. ثم لا تنفك تسلط عليـه نظراتها وابتساماتها .. ثم ترق له وتحدثه عن أمه قائلة وهو يلعنها :

« ... اذا كانت لعناتك تسبب لك ارتياحا فالعنى ما شئت .. لقد توقعت أن تعادينى فى البداية .. وانا لا الومك على ذلك .. انا نفسى كنت أشعر مثل شعورك لو أن امرأة غريبة أيا كانت جاءت لتحل محل امى .. لا شـك انك تنطوى على حب عميق لأمـك .. ولقد ماتت أمى قبـل ان اكبر .. وانا لا اذكرها ابدا .. لكنـك لن تكرهنى يا ايبين ... وانا وانت حظوظنا أشـباه .. وقد عشت مثلك حيـاة قاسية .. فى بحار من المتاعب .. وعملت خادمة فى بيوت الآخرين .. ثم تزوجت رجلا سكيرا .. ومات طفلى منه .. ثم مات هو أيضا ففرحت لخلاصى منه .. وظللت اعمل فى بيت بعد بيت دون أن أحـلم ببيت خاص لى .. حتى جاء أبوك ... »

ويقول لها ايبين : « أبى الذى اشتراك كما تشترى العاهرة .. ودفع لك مزرعة أمى ثمنا .. عليك اللعنة ... الا فلتعلمى أن المزرعة صارت ملكى ! » .

وهنا تفطن الأفعى الى ما يهم ايبين فتقول له ان ما يهمها هى أيضا هو ان يكون لها بيت .. والا فما الذى كان يضـطرها الى الزواج من عجوز مثله : « لقد أصبحت المزرعة مزرعتى » وهذا البيت بيتى .. والمطبخ .. مطبخى .. وفى الطابق العلوى .. مخدعى .. وفيه فراشى ! ايبين .. فلنكن صديقين .. انا .. وأنت » .

ثم تتحوى الشيطانة وتتلوى .. ويضـعف ايبين ويسلس .. وينتهى القسـم الأول من المسرحية .

وفى مطلع القسم الثانى نرى آبى وهى ماضية فى لعبتها .. تحاور ايبين المستعصم وتقول له ان الطبيعـة تحترق فى داخله .. وانها سوف تقهره .. وقد يكون من الأفضـل ان يقـر ويعترف .. ثم تسـتدرجه الى انها تعرف

صلته بتلك العاهرة العجوز مينى : « فلماذا تضيع عمرك معها ؟ تلك السمكة القبيحة التى لا يوجد فى القرية سكير حقير الا لها معها ؟ » فاذا قال ابيين انها خير منها على كل حال لأنها لم تأت لتسرق المزرعة وما عليها راحت آبى تغيظه فى دعابة وتقول انه لن يملك من تلك المزرعة قشة الا اذا أرادت هى :

ويشتد الجدل بينهما فلا يقطعه الا حضور افرايم الذى يذم لها ابيين .. هذا الرخو كامه .. الذى لا يحتمل رخاوته الا اضطرارا .. كى يفلح له الارض ويرعى الماشية بعد سفر أخويه .. ولأنه .. أى افرايم .. أصبح رجلا عجوزا يدب برجليه الى القبر ..

و لايكاد يذكر الموت حتى تطالبه بثمن زواجها منه .. بالمزرعة .. المزرعة التى لا يجب أن يتركها لابيين .. ذلك الابن الضال الذى كان منذ قليل يطارحها الغرام .. ناسيا أنها امه ..

ويجن جنون الرجل العجوز ويقسم لينهين حياته ، ولينثرن مخه بالرصاص على أعالى شجر الدردار ..

ولكن آبى تعود فتلطف له الأمر قائلة ان ما يبدو من ابيين لم يكن الا حماقة صبى .. ولم يكن يخفى أى قصد سيىء .. فيهدأ افرايم .. وسرعان ما يذكر ان ابيين هو الذى يقوم له بكل شيء .. وان كان هو .. وقسما بالرب الصلب الخالد .. ليستطيع أن يقصم ظهور عشرة من الشبان أمثال ابيين ! ابيين الذى من صلبه .. وولده الوحيد ! .

وتفطن آبى الى ما يريد .. فتشرع تلاطفه وتداعبه .. وتقول انهما يجب أن يصليا للرب كى يمنحهما غلاما .. وهى نفسها من يوم ان دخلت هذا البيت وهى تصلى لله ضارعة أن يمنحها غلاما من افرايم يكون خليفة له مكان هذا الابن الرخو الكريه ابيين ! .

ويفرح الرجل الأبله ويبتهج .. ويقول فى خرق :

« ... صلى للرب مرة أخرى يا آبى .. فهذا يوم السبت .. وسأصلى معك .. لأن صلاتين خير من صلاة واحدة « واستمع الرب لراحيل .. فحبلت راحيل وولدت ابنا » واستمع الرب لآبى ! » .

ولم يكن الرجل العجوز المخرف يجد راحته وسعادته الا فى حظيرة البقر .. ولم يكن يجد ريح المسك الا بين بهائمه ..

وفى مرة وهو منطلق الى ربيع قلبه هذا اذا آبى ترى ابيين .. واذا هى تنصب له شراك الإثم من عينيها الفاجرتين ، وابتساماتها المغازلة .. واذا المسكين يتنهد من أعماقه .. واذا هى لا تفلت الفرصة .. بل تتنهد هى أيضا .. ثم تنطلق اليه لتجعله ملء ذراعيها .. ولتغمر فمه بالقبل الملتهبة ..

ثم نكتفى بهذا القدر من خط سير الجريمة .. التى تتم فى الغرفة نفسها التى توفيت فيها أمه ..

وبعد أن تتم الجريمة اذا ابيين يصرخ مستنجدا بروح أمه وهو واقف عارى القدمين متطلعا حوله .. مغمغما فى دهشة وذهول :

« اماه ! اين انت ! » .

وتدرك آبى سر ضعف ابيين .. انه شخص يعشق امه .. فلا بأس .. لتحل هى اذن محل تلك الأم فى نفسه وفى تفكيره .. ولتقل له :

« ان أمك الحبيبة بدأت تعطف على وتحنو .. ولعلها تعرف أننى أحبك .. وربما يكون هذا هو الذى جعلها تعطف على .. ولم تعد تحمل لى أى ضغينة .. فكر معى يا ابيين فى والدتك التى تحنو علينا .. هلم فحدثنى عنها .. » .

ويقول ابيين ان أمه كانت عطوفا وطيبة .. فتقول له آبى انها ستكون هى أيضا عطوفا عليه وطيبة معه .. فيقول انها كانت تغنى له .. فتقول انها ستغنى له كما كانت هى تغنى ..

وهنا تنشر ذراعيها حوله وتقول :

« ... وساموت من أجلك يا ابيين .. فلا تبك .. سأحل محلها .. وساكون كل ما كانته لك .. ابيين .. دعنى أقبلك .. لا تخف .. سأقبلك قبلة طاهرة .. كما لو كنت

والدتك تماما .. أما أنت فرد قبلتي كما لو كنت ابني .. صغيري الذي يحييني تحية المساء .. »

ولكن القبلة الطاهرة لا تلبث أن تكون جحيما من القبل المتأججة المتبادلة ..

ثم لا نملك الا أن نمضي سراعا .. أو خطفا على ما يحدث من هذا كله في المشهدين الثالث والرابع من القسم الثاني .. وحتى يحضر الوالد المغفل العجوز الأبله ليتلقاه ابنه ساخرا مستهزئا .. وغامزا غمزا شـديدا .. وليقول له أبوه انه معتوه مثل أمه .. مثل أمه تماما ! .

وفي القسم الثـالث نكون بعد عام مما كنا فيه .. ونسمع لغطا شـديدا في القرية عما يكتنف بيت افرايم من أسرار .. ونسمع الناس الذين دعاهم العجوز الملعون للاحتفال بمولد ابنه « الرابع » من عروسـه الشابة يتفكهون بهذه المعجزة التي تمت في ذلك البيت بعد فوات عصور المعجزات .. معجزة انجـاب افرايم وهو في السادسة والسبعين غلاما ذكيا من آبى ابنة السادسة والثلاثين .

ان النـاس يتندرون .. وعازف الموسيقى يتهكم .. والخدم والمدعوون يتبادلون النكات والغمزات واللمزات .. وافرايم الأبله المخمور من كثرة ما شرب يصيح متبجحـا مزهوا وهو يلعن ايبين ·· لأنه أنجب ولدا ·· وأنجبـه ليحل محل ايبين الرخـو .. ابن الرخـوة .. وليرث اباه .. ليرث المزرعة والمنزل والمواشي .. وكل شيء .. والكل يشربون ويغمزون .. ثم يرقصون .. وافرايم نفسه يقوم فيرقص .. وكأنه : « قرد يقهقه أو عجوز تلطم ! » .

ثم يخرج ليستنشق الهواء لأنه نال منـه الجهد ..

ويمضي المدعوون في قصفهم وتنـدرهم .. ويخلو ايبين الى آبى .. ويقبـل كل منهمـا الآخر .. وينظران معا الى الطفل البريء الراقد في المهد .. وتقـول آبى انه « يشـبهك تماما يا ايبين .. انه جميل .. رائع .. »

ولا يطيق ايبين الصبر على هذا الوضـع .. لا يطيق الصبر على ان ينتسب ابنـه الى أحد غيره .. ولـكن آبى ترجـوه أن ينتظر عسى أن يحدث شيء .. وتلفه بذراعيها ، ثم تغمر فمه بالقبل .. القبل التي لا يخرسـهـا الا عـودة افرايم ..

ويبدو شيء من الارتبـاك على ايبين الذي يسأله أبوه عما عاقـه من المشاركة في الحفل ورؤية الجميلات هناك .. ولمـاذا لا يختار له عروسا منهن تكون صاحبة مال كما هي صاحبة جمال .. فيقول له ايبين : « مثل الذي فعلت أنت ! » .

وتثار مشكلة ملكية الضيعة بين الأب وابنه .. ويشتد غمز ايبين لأبيه .. ويفاجيء افرايم ابنه بما زعمته من مغازلة ايبين لها .. وما تطالبه به من ملكية المزرعة ، فيثور ايبين ويحسب أن آبى انما كانت تخدعه باظهار تفانيها في حبه .. وينذر أباه بانه قاتلها لا محالة .. فقد خيل له أنها لم تكن تحبه كما تزعم .. بقدر ما كانت تتخذ منه ثورا لتحمل منه .. وليكون لها ولد يضمن لها المزرعة .

عند ذلك ينقض العجوز الوحش على ولده الذي لا يجرؤ أن يقاوم .. فيـكاد الوالد ان يكسر عنقه .. لولا مبادرة آبى ، وانقاذها اياه من قبضة أبيه المفترس ..

ويخلو ايبين الى آبى بعد انصراف أبيه فيغلظ لها ويقول انها كانت تخدعه فيما أبدته له من محبة ووله .. وانها ليست الا كاذبة .. وما كان هو الا ابله حينما صدقها ... لكنها تجيبـه بأنها لم تخبره بما قاله له أبوه الا في ساعة من ساعات الغضب وانها سوف تثبت له حبها اياه ببرهان لا يدحض .

لكن ايبين يقول انه لن يصدقها بعد اليوم .. وانه سوف يدعو اليه امه لتساعده فيما ينتوى من انتقـام .. ولتصب لعنتها على أبيه وعلى آبى .. وانه سوف يخبر هذا العجوز الشيطان الأبله بحقيقة الابن الجديد .. وانه سوف يقاتل أباه حتى يستنقذ المزرعة منـه .. وبعد ذلك يترك أباه ويترك آبى وابنه يتسولون او يموتون جوعا .. في حين يبيع هو المزرعة بما عليها ..

ويذهب الى كاليفورنيا ليلحق باخويه هناك .. وبعد حوار متأجج تقول له آبى :

ــ « اذا كان الولد سيكون سببا فى كل هذا .. اذا كان سيقضى على حبك ، ويقصيك عنى .. وأنت فرحتى التى لا فرحة لى سواها .. الفرحة التى لم اعرف سواها فى حياتى .. الفرحة التى كانت كالجنة فى نظرى . بل خيرا من الجنة .. فانا لا أملك الا أن أكرهه .. اكرهه بالرغم من أننى امه .. وسأقتل افرايم اذا حاول أن يسرقك منى .. اننى أحبك يا ايبين .. أحبك .. ولم أفكر يوما فى سرقة ما هو لك .. وسأبرهن لك على ذلك .. فقبلنى .. قبلنى .. لأننى احبك أكثر من أى شىء فى العالم .. »

وفى المنظر الثالث تلقى آبى ايبين لتقول له انها فعلتها ! لقد قتلته .. قتلته ! .. ويحسب ايبين أنها قتلت أباه .. فتقول له :

ــ « كلا .. كلا .. ليس هو .. لكنى قتلت .. الطفل ! » .

ويوشك ايبين أن يجن .. ويستنجد بأمه الميتة متسائلا : « لم لم تمنعها ؟ .. أين كنت ؟ .. » .

ويسأل آبى كيف جرؤت ؟ فتقول : « تركت الوسادة فوق وجهه حتى انقطعت انفاسه ! » .

ويعود ايبين الى جنونه .. وتنتابه نوبة من البكاء على الطفل .

ولكن آبى تقول له : « لقد كنت أحببه كما تحبه .. لكن حبى لك كان أكبر .. وكان يحول بينى وبينك .. وحسبت أنك تكرهنى لأنى أنجبته .. لقد قتلته لكى تبقى أنت لى .. وتبقى المزرعة لك .. » .. والحقيقة أن الجنس هنا هو الذى كان يتكلم .

ولكن ايبين يصم أذنيه عما تقول .. وها هو ذا ينطلق ليبلغ البوليس .. وليعترف بنصيبه فى قتل ولده .. هذه الجريمة التى دفع آبى اليها بحماقته .

ويقف افرايم على الحقيقة كلها .. لكنه يقول لآبى انه كان يتمنى لو كان الطفل ولده بالفعل .. اذن لما أبلغ البوليس .. ! « انكما مظهر خادع ليمامتين قاتلتين .. يجب أن يشنق كلاكما فى فرع شجرة واحدة .. وان تظلا تتأرجحان هكذا حتى يصيبكما العفن لتكونا درسا للمسنين الأغبياء أمثالى .. لتذهب المزرعة الى الجحيم .. ولتحرر الماشية لأحرر نفسى .. وسأشعل النار فى المنزل والحظيرة .

ويحضر البوليس فيقبض على آبى وايبين .. لكن المأمور لا يكاد يرى المزرعة حتى يتمنى لو كانت ملكه .. لأنها .. جميلة ورائعة جدا !

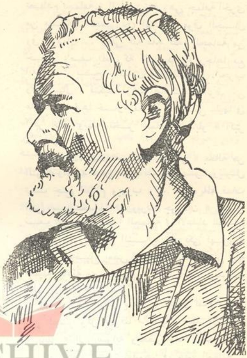
وهكذا تنتهى تلك الميلودرامة الغريبة التى يحرك الجنس شخوصها جميعا .. والتى خرجت من تجارب أونيل خروجا صادقا دافقا .. وبصورة طبيعية بشعة .. وهى لهذا قد تسخطنا .. وتجعلنا نأسف على الأيام التى كانت المأساة فيها تطهيرا للنفوس وسموا بالأرواح .. أيام أن تناول يوريبيديز هذا الموضوع نفسه فى معجزته الخالدة : « هيبوليتس » الأمير الذى أحبته زوجة ابيه وهامت به .. لكنه أبى واستعصم .. وهو مع هذا فضل أن يكتم السر الهائل عن أبيه احتراما لأواصر الأبوة وتقديسا .. مما كانت نتيجته قتل الشاب نفسه .. وأسف أبيه عليه بعد أن انكشف الستر عن الحقيقة كاملة ..

وقد عاد راسين الى الموضوع نفسه فى مأساته فيدر فصاغ منه درة باهرة لم تغرق فى حمأة الجنس ..

ولكنا نعود فنقول ان اونيل ومن سبقوه الى جحيم الجنس آثروا ألا يخدعوا الناس عن حقيقة النفس البشرية ولا سيما اذا ظلت طعمة للجهل .. بعيدة عن نور الحضارة .. فريسة لمعتقدات لم يهضمها المؤمنون بها .. مفضلين ان يمزقوا أغلفة النفاق الاجتماعى حتى ترى البشرية نفسها على حقيقتها .. وهذا هو ما فعله ابسن وستراندبرج وقدكند وهاوبتمان .. واونيل ... وما يفعله من بعدهم تنسى وليمز وكثير من الكتاب المحدثين .

ان الجنس غول حقا .. لكنه عالم من الأسرار جدير بالعرض والدرس .

دريني خشبة



لمن تدق الأجراس

تأليف : ارنست همنجواى

هــذه الرواية ليست أروع ما كتب ارنست همنجــواى فحسب بل من أروع ما كتب فى الأدب الأمريكى الحديث ، وتدور أحداثها فوق جبال وفى سهول « اسبانيا » . اذ تحكى طرفا من الحرب الأهلية التى شملت اسبانيا ما بين عام ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ .

وتقع هذه الرواية الطويلة فى مدى أربعة أيام بالحساب الزمنى . وترتفع الستار على احــد جبال اســبانيا بظهور بطل الرواية « روبرت جوردان » ــ وهو شــاب أمريكى مثقف يذهب الى اسبانيا ليحارب الى جانب الجمهوريين ضد الفاشست . وهــذا الشــاب الأمريكى مكلف بنسف جسر كاشارة للجمهوريين لشن هجوم على « سيجوفيا » ، وكان يتحتم عليه وهو يعمل وراء خطــوط الفاشست أن يســتعين بأفــراد العصابات التى تحارب فى الجبال وهم خليط من الفلاحين والفجر والنساء الهــاربات من لهب الحرب ــ وهم عينــة من مجتمع الجمهوريين الذين يمثلون آمال وآلام واتجاهات هذه الجبهة فى اسبانيا .

ترجمة : مجد الدين حفنى ناصف
مراجعة : على أدهم

الناشر دار القلم
عدد الصفحات ٢٢٤ ص ١٤×٢٠ سم

واستطاع همنجواى أن يرتفع بهذه الرواية التى خطها بأسلوبه السهل الممتع وبالتفصيلات الدقيقة لوصف أحداثها ، استطاع أن يرتفع بها الى مستوى فنى رفيع فانت تستطيع ان تتابع الأحداث فى سهولة ويسر كما تجد نفسك عن كثب من شخصياتها الغريبة ، ويصل « روبرت جوردان » بصحبة « أنسلمو » الرجل الصياد المسن الذى يترك صيده لينضم الى صفوف المحاربين فى خدمة الجمهورية ، ثم ينضما الى عصابة « بابلو » الرجل الذى أبلى بلاء حسنا وأبدى شجاعة فائقة فى حرب العصابات ومقدرة نادرة على قتل الفاشست ، ولكن تسايره بعض الشكوك والتردد فى الاقدام على عملية نسف الجسر ، ولابد لنا أن نعرف « بيللار » تلك المرأة الفجرية زوجة « بابلو » سليطة اللسان وشجاعة القلب ، لا تخاف الموت ولا تهتز لقصف المدافع وأزيز الرصاص .

وهناك مع جماعة « بابلو » التى كانت تسكن كهفا فى سفح أحد الجبال .. هناك يقابل « روبرت جوردان » « ماريا » — وهى احدى الفتيات التى لقى أبوها مصرعه على أيدى الفاشست ، وشهدت بأم عينيها عملية قتل والدها الذى كان عمدة لاحدى القرى الأسبانية المتشيعة للجمهورية ، ومصرع أمها التى كانت تؤمن بالجمهورية وتناصرها ، ويرتكب الجنود الفاشست من أعمال القتل والسلب ما يجعل النفس تشمئز ويصيب الانسان بالغثيان . ويقع روبرت جوردان فى حب « ماريا » ويعوضها هذا الحب الجاد المخلص كل ما عانته وقاسته على أيدى الفاشست .

وتسير الأمور سيرها الطبيعى خلال الثلاثة الأيام التى قضاها الشاب الأمريكى مع جماعة « بابلو » ويصف الكاتب حياة هذه الجماعة فى الجبل ، ومدى تفانى الفرد فى خدمة الجماعة .

ثم يبدأ وأفى الاعداد لعملية نسف الجسر وتجهيز ما يلزمهم من أفراد آخرين وخيل لمواجهة أسوأ الاحتمالات عند تنفيذ هذه العملية .

وفى اليوم السابق لعملية نسف الجسر يظهر « روبرت جوردان » براعة فائقة فى تجنب اصطدام مسلح مع قوات الفاشست التى تصطدم بجماعة « السوردو » وهى جماعة أخرى من عصابات الجمهوريين المنتشرة فوق الجبال وفى الوديان .. وعلى قلة عدد هذه الجماعة من خلال وصف المعركة التى دارت رحاها مع الفاشست يتضح مدى مهارتها فى الحرب والقتال ، فتكبد قوات الفاشست بالرغم من عدتها وعديدها خسارة فادحة . ويقضى عليها فى آخر الأمر وبهذا تخسر جماعة « بابلو » أكبر معين لها .

وبعد هذه الحادثة يصاب « بابلو » بحالة من التردد والارتداد عن عملية نسف الجسر ، وينسل تحت جنح الظلام ويهرب وقد سرق المفرقعات التى سيستخدمها « روبرت جوردان » غدا فى نسف الجسر . وتبدأ الجماعة فى الاعداد للصباح المرتقب ولم ييأس الشاب الأمريكى لهروب « بابلو » وضياع بعض أدواته ، ولكنه يقضى ليلة جميلة هادئة مع حبيبته « ماريا » .. وقد أعد لكل شىء عدته .

وفى الصباح الباكر يتجه الركب فى نظام وحذر الى الجسر وكل يعرف ما عليه ، بعد أن يعود « بابلو » الى صوابه ويحضر معه أربعة رجال من العصابات ليساعدوهم فى هذه العملية . ويشترك « روبرت جوردان » و « أنسلمو » الرجل المسن الطيب فى قتل حارس الجسر ، ولكن الدموع تتساقط من عينى « انسلمو » بعد ان يقتل الحارس .. فهو يكره قتل الانسان ويكره الحرب البغيضة ولكن كان عليه أن يقتل من اجل المبادىء ، وينسف .. ويموت « انسلمو » .. فيحزن عليه « روبرت جوردان » الذى ينجو من الموت بأعجوبة ، ثم ينسحب الجميع هاربين الى الجبل حيث انتهت مهمتهم وحيث طريق العودة ..

وتغمر الجميع السعادة بعد نجاحهم فى هذه العملية وتشعر « ماريا » أن أملها فى العودة الى مدريد والزواج من « روبرت جوردان » تحقق أو كاد ، ولكن .

تعددت الأسباب والموت واحد

فمن لم يمت بالسيف مات بغيره

فلامفر ولا مخرج من الموت وحقيقته الواقعة ، اذ يكبو جواد « روبرت جوردان » وهو ينسحب مع رفاقه تحت نيران الفاشيست الذين

يطاردونهم وتكسر ساق « روبرت جوردان » كسرا يعجزه عن مواصلة السير . وكان فراقا مرا أليما اذ تفتقد الجماعة انسانا عزيزا عليهم طالما أحبوه وأكبروه .. خاصة « ماريا » التى تركته على الرغم من نفسها وكأنها تترك الحياة لتقبل على الموت .

ويبقى « روبرت جوردان » ملقى على الأرض ومن حوله الحياة تدب فى العشب الأخضر واشجار الصنوبر وليس معه سوى بندقيته التى احتفظ بها ليستخدمها فى الانتحار اذا دعا الأمر ..

وهكذا تتجلى فلسفة « ارنست همنجواى » او فلسفة الجيل الضائع – جيل ما بعد الحرب – اذ يرى أن الحياة لا جدوى فيها فعندما يبلغ المرء غايتـه أو يكاد تحطمه الحياة والظروف المحيطة به . اذ ينتظر « روبرت جوردان » مصيره المحتوم وهو اما أن يعثر عليه جنود الفاشيست فيقتلونه بطريقة أو بأخرى .. واما أن يطلق الرصاص على نفسه ، وهذا ما فعله أرنست همنجواى نفسه فى يوليو سنة ١٩٦١ .

ولقد نجح الكاتب فى ابراز عنصرى الفظاعة والوحشية التى تجلت فى وصف المعارك بين الجمهوريين والفاشست كما أن كل شخصية من شخصيات الرواية تحب الحياة وتتمسك بها لآخر لحظة ، وعلاقات الشخصيات بعضها مع البعض الآخر يعطينا أروع مثل روائى تتجلى فيه الحساسية والفكر وعنصر الاستخفاف الذى يومض من خلال مأساة الانسان .

وقد ضمن « همنجواى » هذه الرواية كل الموضوعات التى كتب عنها .. فالشجاعة الكاملة فى النفس البشرية والتى تتجلى فى حالة الدفاع عن هدف شريف ، والاستخفاف ، والرقة التى تبدو فى العاطفة الشريفة ، وضمنها أيضا الكثير من المتناقضات ، فالرقة تصارع القسوة

ولم يكتب « همنجواى » عن هذه الموضوعات أحسن مما كتب فى هذه الرواية اذ استطاع فى دقة وبعد نظر أن يصور اعجابه بالجمهوريين وثقتهم العميقة التى حركتهم وأوحت اليهم بالقتال ..

ولما كان موضوع الرواية الحرب وبشاعتها ، فهل نجح ارنست همنجواى فى تصوير فظاعة الحرب وضراوتها وكيف أن الحرب دائما مجزرة يخسر فيها الجانبان المنتصر والمنهزم . ووضوح هذه الصورة وتكاملها يعتمد على عناصر عدة يستخدمها الفنان لخلق عمله الفنى . والآن أحب أن ألقى بعض الضوء على هذه العناصر ومدى تكاملها وتفاعلها لخلق الصورة الرهيبة للحرب ومقدرة الشخصيات على الحركة والتفاعل والاندماج فى الأحداث .

جـو الرواية :

البيئة التى يعمل فيها الشخصيات أو مسرح الأحداث عنصر هام فى الرواية . ونحن نقرأ « لمن تدق الأجراس » او قصة الحرب الأهلية فى أسبانيا نعيش من اول الرواية الى آخرها على سفوح الجبال أو السهول وفى القرى المنكوبة ورائحة البارود تزكم أنوفنا وطلقات المدافع وأزيز الرصاص يصم آذاننا ، ونوارى أعيننا فى رهبة وخوف عن منظر الدماء الذى يقابلنا فى كل مكان من جبهة القتال . فقد استطاع الكاتب أن يصف على لسان « بلار » المذابح الرهيبة فى احدى قرى الفاشيست التى استولى عليها الجمهوريون وراحوا ينتقمون من أعدائهم فى وحشية وضراوة ويقتلون الانسان بضربة واحدة من عصا غليظة أو برصاصهم أو يلقون به الى النهر من على ارتفاع شاهق وتنقل لنا « ماريا » صورة مشابهة لابادة الجمهوريين على يد الفاشيست وكيف ينتهكون حرمة البيوت ويسلبون البنات عفتهن . ثم معركة جماعة « السوردو » وكيف أبادها الفاشست بأسلحتهم الحديثة وطائراتهم ، ويأبى جنود الفاشست الا أن يقطعوا رؤوس ضحاياهم ويحملونها على ظهر خيولهم والدماء تقطر منها .

وعملية نسف الجسر وتصويرها بكل دقة ووضوح وقتل حراسى المغفر ودموع « أنسلمو » بعد أن قتل الحارس العجوز .

ورحلة « اليادو » الرسول الذى حمل رسالة « روبرت جوردان » الى قيادة الجمهوريين ،

وكيف عبر خطوط الفاشست حتى وصل الى « جولتز » فى قيادة الجمهوريين ، وما رآه من استعدادات حربية ضخمة وتحركات عسكرية واسعة .

وعلى هذا فالكتاب يفوح بجو المعركة ورائحة الموت والقذارة ولم يرو أى وصف أو تصوير لمناظر الفنادق أو المدن الهادئة الآمنة سوى فى مخيلة « روبرت جوردان » وأحلامه عن حياة سعيدة هادئة بأحد فنادق « مدريد » بعد زواجه من « ماريا » . وذكريات « بلار » التى عاشتها قبل الحرب .

الشخصيات : (شخوص) يلعبون لعبة الموت على مثل هذا المسرح وفى مثل هذه الظروف لابد وأن يكونوا مزودين بصفات معينة ولديهم القدرة على التحرك والاندماج فى دورهم فهل حدث ذلك ؟ .

شخصيات الرواية مجموعة من الجنود والضباط وكلهم أو معظمهم كانوا يشتغلون بالزراعة أو الصيد أو اى حرفة أخرى غير الحرب . ولكن جمعتهم صفة الوطنية والاخلاص لحكومتهم والتصميم على الدفاع عن مبادئهم الديمقراطية ضد تيارات الفاشية التى تحاول أن تستولى على الحكم وزمام الأمور فى البلاد .

« وروبرت جوردان » شاب امريكى مثقف يقوم بتدريس اللغة الاسبانية فى احدى الجامعات الأمريكية يحضر الى اسبانيا لدراسة تقاليد الشعوب وثقافتهم ويشاركهم حياتهم لأن اللغة من أهم مقومات حياة الشعوب ، وتستهويه مبادىء الجمهوريين ويقتنع بالدفاع عن هذه المبادىء والمفاهيم . فينضم الى العصابات ليحارب الفاشست « وجوردان » شخصية مرنة سريع الحركة يبدى براعة فى عمليات الحرب والنسف ، ولذلك توكل اليه عملية نسف الجسر وينجح فيها ، ولكنه يصاب بكسر فى ساقه اليسرى ويعجز عن العودة الى خطوط الجمهوريين ويترك ليلقى مصيره المحتوم .

« وبلار » تلك المرأة الغجرية الزعيمة الحقيقية لجماعة زوجها « بابلو » زعيمة برأيها السديد وشخصيتها القوية لا تحضرها مشاعر الحب ومظاهر الأنوثة الرقيقة الا فى الذكريات والأحلام . ولكنها تعيش مع زوجها وجماعته صاحبة صوت مرتفع ، صوت قوى وفكر ثاقب يعرفها أفراد العصابات التى تحارب فى الجبال حتى عند سماع صوتها فى الظلام . وتتحدث بلسان غجرى سليط ليس فى لهجتها ومشاعرها أى تكلف أو اصطناع . تمسك بالبندقية وتشترك فى عملية نسف الجسر وتقوم بدورها كأى جندى فى الميدان .

و « بابلوا » حنكته الخبرة وصقلته التجربة فهو يحارب كما لو كان قد ولد ليكون جنديا فى الميدان ولكن الشيخوخة تؤثر عليه ويتردد فى عملية نسف الجسر ويجبن امام هذه العملية ويهرب فى الليل ، ولكن صوت الماضى والأمجاد يرده الى صوابه ويعيده الى المعسكر ليشترك فى عملية نسف الجسر .

و « أنسلمو » و « السوردو » و « جولتز » وغيرهم من شخصيات الرواية يواجهون الموت بكل ثقة وشجاعة ويموتون موت الأبطال فى الميدان .

وهؤلاء الأشخاص بشر قبل أن يكونوا جنودا وقتلة ، اذ أن كلا منهم يحب الحياة ويتمسك بها الى آخر لحظة لكن طبيعة الحرب تدفعهم الى القتل ومن لم يقتل يقتل .

وأحداث الرواية تسير فى خط واضح تعمقه الأحداث وتدفعه الى قمة الأزمة او العقدة ، ولا تدخل الصدفة فى أحداث الرواية ولا تغير مجراها ، وانما كل شىء تقوم به الشخصيات المتطورة المرنة مرونة الحرب وتغيرها . ولم توضع شخصية فى غير موضعها . وكثيرا ما صادفت الشخصيات مواقف صعبة جعلتهم فى موقف حرج ولابد ان يتصرفوا أو يلقون حتفهم وهذا مما ساعد على مرونة الأشخاص وفاعليتها ، فهم جنود فى الميدان والجندى لا يسعه أن يقف مكتوف اليدين او موقف المتفرج ، ولكن عليه

ان يقوم بدوره خير قيام وتبدأ القصة مع بداية رحلة روبرت جوردان » أو رحلة الموت الى ما وراء خطوط الفاشست ليقوم بنسف الجسر ويصحبه « أنسلمو » فى هذه المهمة ، والصعوبات التى تقابلهما والمخاطر التى لا حد لها ، وعليك أن تقدر وضع الجندى الذى يخترق الحدود الى داخل أراضى العدو وما يجب ان يكون عليه من حذر ودراية — ثم يبدأوا فى الاعداد لنسف الجسر ووضع الترتيبات اللازمة لذلك ويطلب « جوردان » مزيدا من الرجال لمساعدته اذا ما اقتضى الأمر وتبلغ القصة ذروتها عندما يهرب « بابلو » ويسرق بعض المعدات التى سيستخدمها « جوردان » فى نسف الجسر ، وأستطيع أن أحدد الساعات الأخيرة من ليلة نسف الجسر بقمة التأزم فى القصة ، وتأخذ الأزمة طريقها الى الحل عندما يصمم « روبرت جوردان » على بذل كل ما فى طاقته واستخدام كل ما لديه من امكانيات محدودة فى نسف الجسر فى الموعد المحدد لذلك ثم يعود « بابلو » وبرفقته أربعة رجال آخرين ليشاركون فى العملية التى تتم بنجاح .

وقد يعيب بعض النقاد على أرنست همنجواى وجود قصة حب عنيف بين « ماريا » و« روبرت جوردان » فى ميدان القتال وجو المعركة . ولكنى لا أرى فى هذه القصة أى عيب أو نقد حبذا لو عرفنا كيف يقدس همنجواى الجنس كمصدر اخصاب ومصدر الحياة ودافعا الى النجاح على الأقل فى هذه الرواية . فان حب « ماريا » « لجوردان » كان حبا ايجابيا بمعنى أنها كانت تشجعه وتمنحه من نفسها لدفعه الى اتمام مهمته بنجاح حتى يعودا الى « مدريد » سويا وعلى هذا فقصة الحب هذه جزء من الرواية لا يتجزأ عنها . اذ جمعتهما الظروف المشتركة ظروف الحرب والأمل المشترك اذ كان أملهما الفوز فى الحرب والقضاء على تيار الفاشية الطاغى .

وكثيرا ما ترددت فكرة الانتحار على لسان « روبرت جوردان » وهو يناجى نفسه ويذكر كيف ان اباه مات منتحرا ولا عجب فكاتب الرواية عاش حياة مليئة بالمغامرات والسفر ولكنه فى دخيلة نفسه كان يخشى ان يصل من العمر مرحلة يعجز فيها عن الحركة والنشاط ومن ناحية أخرى كان متشبعا بفلسفة الضياع أو ما يعانيه جيل ضائع دخل الحرب وعاصرها فلم يجد منها خيرا وأدرك فى النهاية أن نهايته لابد آتية ، فالانسان الطموح لابد أن تحطمه الحياة وظروفها وتقتله والانسان العادى يبقى ليلقى مصيره المحتوم كسابقه فليس على الدنيا عزيز ولا يبقى الموت أحدا . فلا عجب اذن ان تراود « روبرت جوردان » فكرة الانتحار وتسيطر عليه اذا ما عرفنا أن «أرنست همنجواى» يعطف على « جوردان » ويبثه آراءه وفلسفاته فالقارىء يلاحظ وجه الشبه الكبير بين « جوردان » و « همنجواى » والذى امسك ببندقيته وأطلق على نفسه الرصاص ليموت فى يوليو ١٩٦١ .

ولم يكن « همنجواى » بمستطيع ان ينقل الينا أحداث هذه الرواية وتفاصيلها بمفرده ولذا فقد استعان بالأشخاص الذين شاهدوا الأحداث أو عاشوها . أو ما يعرف بشاهد العيان ، فقد حدثتنا « بلار » عن جزء هام من الرواية عندما أخذت تسرد ذكرياتها فى « مدريد » واعجابها بمصارعة الثيران .

« وماريا » أيضا تحكى لنا قصة قريتها مع جنود الفاشست وما لقيته على أيديهم من تعذيب وارهاب .

« وانسلمو » ينقل الينا أخبار معركة «السوردو» مع الأعداء ويصف المعركة وهو يرى أحداثها عن كثب .

واستطاع الكاتب أن يكشف عن دخيلة شخصياته وما يعتمل فى داخلهم من صراع فقدم لنا صورة ما يعانيه « روبرت جوردأن » من صراع داخلى من خلال مناجاته لنفسه وكيف يصطرع حبه للحياة ورغبته فى الموت فى نهاية الرواية عندما ترك متأثرا بجراحه يعانى من آلامه ويحاول الاقدام على الانتحار ليخلص نفسه من الألم واليأس ثم يحجم عن هذا ويتردد متمسكا بالحياة لآخر لحظة ويتركه الكاتب فريسة لهذا الصراع حتى آخر كلمة فى الرواية .

والحوار الذى يدور بين الشخصيات يعطى القارىء فكرة واضحة عن كل شخصية وما يعتمل فى نفوسهم من الم وأمل وما يعترى الانسان من لحظات ضعف وقوة .

واستخدم الكاتب فى هذه الرواية أسلوبه المعهود ، الأسلوب السهل الممتع والجمل القصيرة المركزة اذ المعروف عنه أنه كان يكتب ثم يراجع ما كتبه اكثر من مرة ويغير الكلمات التى يرى أنها لم توضع فى موضعها السليم ويستبدل لها بغيرها حتى أنك لتعجز عن استبدال أى كلمة بأخرى ، ولأن اسبانيا هى مسرح الرواية فقد استخدم الكاتب بعض التعبيرات والكلمات الأسبانية التى وجد أنها أكثر قوة وأدق تعبيرا عن مرادفتها باللغة الانجليزية ووضع الى جانبها ترجمة حرفية بالانجليزية حتى يقرب المعنى الى القارىء .

والمترجم الذى نقل الرواية الى العربية حاول جهده أن يكون أمينا الى النص مخلصا فى تعريب الكتاب ولكنه لم يستطع أن يرتفع الى اسلوب « همنجواى » وتركيزه الشديد واضطر فى بعض الأحيان أن يستخدم بعض الألفاظ أو الكلمات المهجورة والجمل المطوطة . ولكننا اذا قسنا أسلوب « أرنست همنجواى » وايجازه الشديد التركيز . نجد انالمعرب قد بذل الجهد الكبير فى ترجمتها وقدم الى المكتبة العربية عملا ما كان احوجها اليه وما أحوج القارىء العربى وغير العربى ان يقرأ هذا العمل الفنى الرائع فى زمن يسرع فيه العالم الخطى الى حافة الهاوية ونهاية البشرية ، وتنتهك حرمة السلام فى بقاع كثيرة من الأرض ، والقنابل الذرية والصواريخ تضحك ساخرة من ذكاء الانسان ومأساته وليس عليها الا أن تنطلق عندما تضغط يد عابثة على الأزرار وتعبث بصمام الخطر .

شوقى أحمد حسين

◎◎◎

الجسد والرُّوح

رثاء عباس محمود العقاد

١٢ مارس ١٩٦٤

مضيت مضى الراحلين ، ولم تفن
ذخائر علم ما وهبن لمن يقنى

خلقنا على هذا المدار وديعة
ترد كما كانت الى ظلمة الدجن

وليس لنا فى الموت دفع وحيلة
الا كل حى منتهاه الى حين

فقدناك فى لمح النواظر ، واختفت
معالم فكر ظل يشغل بالفن

فقدناك أستاذا عميقا محصلا
تسامى بآفاق التأمل واللسن

مقلب آراء ، وكاشف معضل
وغريد أشعاره يحلق فى قن

نسائل عنك الروح أين قراره
أفى الجو يبقى ، أم تطاير كالعهن ؟

وما زال هذا الموت لغزا محيرا
يروع بتفريق ويعصف بالبين

اذا كنت فى دنياك أفصح ناطق
فانك فى مثواك أبلغ فى الكفن

أتيت بروح الآملين مجاهدا
ورحت وحجب الآفلين بما يضنى

خلا ربعك المأنوس من عين وامق
وأصبح منك الربع قفرا بلا عين

وكان لك الذهن الخصيب مزودا
فوا أسفا ، اذ غبت منحسر الذهن

تحداك قوم بانتقاص ، وحاولوا
جدالك بالقدح الذميم وبالطعن

وعابوك شيخا لست من سن جيلهم
وما كان علم الناس وقفا على سن

فكنت لهم قلبا جريئا مناجزا
يحطم دعواهم ، ويدفع بالطحن

ولو وزنوا ما اجهدته عقولهم
بفكرك ، أربى ما بفكرك فى الوزن

فان كان ضغن فالممات يسله
قضاء الردى خطب يجل عن الضغن

فيالظنون قد أرثت حبالنا
وأسوأ شىء . أن ترجم بالظن

ترامت بنا هوجا تحر بجارح .
يقطع أوشاح الودادة فى الخدن

لك الله من قرم علا بنبوغه
ومن حاصد يجنى من العلم ما يجنى

لئن أغمضت كف المنية جفنه
وآواه غور الأرض مغتمض الجفن

فان وراء الغيب من لمحاته
لقاء مع الأرواح متصل الرسن

هى الأرض أم يحمل البطن ثقلها
نعود كما جئنا الى فجوة البطن

حبتنا صفات الجد والأب بعده
ونورثها الأعقاب فى لحمة الابن

أهذا هو الانسان ؟ ، واحر قلبه
لقد غاض مسلوب الارادة والشجن

أهذا هو الانسان ؟ ، أين حديثه
وأين فؤاد فى مطامعه يبنى

يعيش على حرب التنازع حقبة
ويبلى بأوجاع النوازل والأين

ويصدى فما بل الأوام ، ولا اشتفى
برغد ، ولاضافته عائدة الأمن

فأين تراه اليوم ؟ لا شىء بعده
ولا همس الا ما يهيج للحزن

توارى على نعش يساق مكبلا
طريح فلاة ، يستحيل الى عفن

يقيم بسجن العمر غير مخير
وينقل فى جذل الفناء الى سجن !!

سلام على (أسوان) ان ضريحها
لمقترب بالذكر قرنا الى قرن

فيا شمس ، ماذا لو منحت صعيده
وميضا بأنباء الأنام فيستدنى ؟

ويا نسمات الفجر هبى نوافحا
ومرى بأنفاس الربيع ولا تثنى

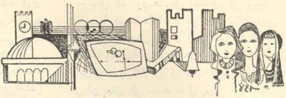
ويا فاتنات الحور سيرى وئيدة
وطوفى عليه بالرحيق وبالدن

ويا زهرات الحسن أما تفتحت
براعمها ، هلا نثرت شذا الحسن ؟

ويا أنجم الليل البهيم تسللى
بنورك يمشى فى مساربه اللدن

فهيهات أن ينسى ويحجب شخصه
وما هو من يطوى نثاه على دفن

عبد السلام رستم



تعريفات

رواد الصحافة فى الولايات المتحدة

تاليف : جيرارد بريفين ميير .

تقديم ودراسة : ماهر نسيم .

ترجمة : أحمد أبو كف .

دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ١٥٩ صفحة . ث ٣٠ قرشا

تنفرد الصحافة فى الولايات المتحدة بخصائص عديدة ، تميزها عن الصحافة التى نشأت فى بلدان اوربية أخرى وفى مناطق متفرقة من العالم ، فهى قد بدأت مبكرة بالنسبة للبلاد الجديدة والأقطار الناشئة ، كما أنها بدأت مبكرة أيضا بالنسبة للصحافة فى أنحاء العالم كافة . فالبذور الأولى لها بدأت فى أخريات القرن السابع عشر ، وقبل الاستقلال بوقت طويل ، وذلك بفضل نفر من الرواد الذين طالما غامروا بانفسهم فى مجال جديد غير مأمون العواقب ، ولم يحفلوا بما كان قائما من قوانين تحد من حرية النشر فى عهد الملكية البريطانية القوية ، وقبل الحريات التى ظهرت فيما بعد . ولم يحفلوا أيضا بالصعوبات التى تعترض كل عمل جديد ، خاصة وان اغلب هؤلاء الرواد لم يكونوا فى حالة مالية ميسورة وفى اطمئنان معيشى متوفر .

وهذا الكتاب يعطينا فكرة واسعة عن هؤلاء الرواد الذين ابتكروا الصحافة الأمريكية ، فحياتهم وسيرتهم هى حياة هذه الصحافة وسيرتها . وقد تناول المؤلف هذه الفترة المبكرة من تاريخ الصحافة الامريكية والتى تتراوح بين السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر والسنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، اى فترة لا تتعدى ربع قرن من الزمان .

ويمتاز الكتاب بانه الأول فى موضوعه باللغة العربية ، كما أنه عرض لنا عرضا طيبا لتاريخ الصحافة الأمريكية فى عصر نشأتها ، وذلك فى أسلوب سهل ميسر ، وبصورة مشوقة جذابة . هذا الى ان الأستاذ المقدم كتب دراسة جيدة عن المسئوليات الخاصة برئيس التحرير وسكرتير التحرير والمحررين ، وكل من له اتصال بالعمل الصحفى ، ومع أن هذه المقدمة لم يكن لها مجال فى كتاب يسرد لحياة الرواد الأول فى تاريخ الصحافة الأمريكية ، الا انها احاطت بموضوعها من جوانب عديدة ، قلما تتوفر لبعض من كتب فى نفس الموضوع .

والشىء الوحيد الذى قد يؤخذ على الأستاذ المقدم انه أغفل فى حديثه عن رواد الصحافة العربية ذكر بعض الرواد الذين نعتز بهم ونعرف قدرهم وفضلهم ، كما أنه فى ترتيبه لهؤلاء الرواد حسب عصور الصحافة العربية ، جعل نفرا مثل أحمد حسن الزيات وفكرى أباظة ومحمد التابعى على أنهم من الرواد المحدثين مع أن عهدهم بالصحافة يرجع الى اربعين أو خمسين عاما .

وأخيرا .. فان الحديث عن تاريخ الصحافة الأمريكية وعن رجال مثل بن هاريس وجون كامبل حديث مهم ، لأننا بدراسة الماضى نستطيع أن نتعرف طريقنا الى المستقبل . وفى هذا

يقول المؤلف «ان الجرائد اليوم تختلف دون شك عما كانت عليه فيما مضى ، ولكن أعظمها شانا تمضي على نفس التقاليد ، وتسير نحو نفس الهدف . وهو ما وصفه جون كامبل بقوله (ايراد الحقائق ايرادا أصيلا صادقا) ، أو كما وصفه بن هاريس ... (أن يفهم الناس في كل مكان ظروف الأحداث العامة في داخل البلاد وخارجها على السواء) .. » .

الصديق أبو بكر

تأليف : محمد حسين هيكل

النهضة المصرية ٣٨١ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

ث ٥٠ قرشا

الدكتور محمد حسين هيكل غني عن التعريف فهو واحد من رواد الحركة الأدبية المعاصرة ، وبخاصة في ميادين القصة والصحافة والتاريخ ، الى جانب ما كان يكتبه بين حين وآخر من مقالات السياسة والاجتماع والوطنية ، تحتل مكانة عظيمة من تراث هذا الكبير الراحل .

وهذا الكتاب أحد الآثار الجليلة للدكتور هيكل ، وهو يعد حلقة في سلسلة الدراسات التي قام بها عن عظماء الاسلام في صدره الأول ، والتي قدر له عن طريقها أن يضفي أضواء جديدة على حياة هؤلاء العظماء .

وكثير من الكتاب المعاصرين كان لهم نصيب كبير في توضيح الصورة العامة للصحابة الأولين ، نخص بالذكر منهم العقاد في عبقرياته وسيره التاريخية ، وطه حسين في كتبه عن « الشيخين » و « الفتنة الكبرى » وغيرهما . والسمة الظاهرة في عبقريات العقاد أنه يتناول بالتحليل والمناقشة الملامح المميزة للشخصيات التي يكتب عنها ، ويعقد لنا دراسة نفسانية لهم ، ويستخدم الصورة العامة لهذا العصر في ابراز الصورة الخاصة للبطل . أما طه حسين فالسمة الظاهرة من كتاباته الامتاع الأدبي أكثر من التدوين التاريخي أو الوصف الداخلي لهذه الشخصيات .

ويمثل الدكتور هيكل اتجاها آخر ، يعد من الناحية الزمنية أقدم من هذين الاتجاهين ، فالعرض التاريخي وبيان الظروف المختلفة التي أحاطت بحياة البطل ، هي عند المؤلف العامل الأول والسبب الأخير في كتابه ، وان أداه هذا الى أن يغفل الى حد ما في بعض أجزاء كتابه الحديث عن الشخصية التي يؤرخ لها ، وهي شخصية أبي بكر الصديق ، من أجل الحديث عن عمل كبير قام به قائد مثل خالد بن الوليد في عصر هذا الخليفة .

وتتجلى الروح التاريخية أيضا عند المؤلف في أنه كان يعرض للروايات المختلفة عن واقعة بعينها ، ويرجح أيهما أقوى منطقا واقرب الى الواقع الملموس . وهو لا يقتصر في بحثه على الرجوع الى المستشرقين والى المؤرخين المحدثين من العرب ، حتى تتبين لديه الحقائق المطلوبة .

وهذا الكتاب يتناول حياة الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأبو بكر أيضا غني عن التعريف ، ويكفينا أن نذكر انه صاحب رسول الله وخليله ، وثاني اثنين اذ هما في الغار . وقد قدر له أن يتولى أمور المسلمين بعد نبيهم في ظروف تفت من عضد أعظم الرجال وأصلبهم عودا وأشدهم صبرا وأقواهم عزيمة ، فقد انتقضت العرب وارتدت كثرتهم ، وأحدقت بالمدينة من كل جانب . وكان بوسع أبي بكر أن يتوصل مع هؤلاء الأغراب الى حلول ترضيهم ، وتحمي المدينة من شرهم ، لولا أنه كان شديدا في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، لو منعوه عقالا لجاهدهم عليه ، وصبر حتى يأخذه منهم .

وبفضل جماعة من القواد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، استطاع ابو بكر أن يقمع الفتنة ، وان يرد كيد المرتدين الى نحورهم . وكان ذلك ايذانا بالبدء في حركة الفتوحات التي لم تنته الا بعد أن استظلت بالخلافة الاسلامية تلك البقعة الواسعة الممتدة من الجبال العالية في شمال اسبانية حتى تخوم الصين .

والعمل العظيم الثالث الذي قام به أبو بكر

فى عهد خلافته هو جمع القرآن ، حين عهد بذلك الى زيد بن ثابت كاتب الوحى ، بعد ما جرى من مقتل القراء ، وعـدد كبير من المهاجرين والأنصار فى حروب الردة وخاصـة فى حرب اليمامة .

يقول المؤلف « ولو ان أبا بكر وقف من خلافته عند القضاء على الردة ، لشهد الناس جميعا له بعظمة ما قام به وبجلاله ولو انه لم يصنع أكثر من أن وضع القواعد للامبراطورية الاسلامية ، لاقروا كلهم له بالعظمـة وخلود الذكر على صفحات الدهر ، فاذا حفل عهده بهذين الامرين البالغين كل هذا الجلال وكل هذه العظمة ، ثم كان فيه جمع القرآن ، وهو ابقى منهما جميعا وأعظم ، فذلك الخلد الذى لا خلد بعـده ، والرضـا من الله لا يؤتاه الا الصديقون الذين سما ايمانهم فيسر الله لهم كل عظيم وهيأ لهم من امرهم رشدا » .

والكتاب مجهود كبير ، يحتل مكانا بارزا فى حياتنا الأدبية المعاصرة ، بيد اننا كنا نود معلومات أوفى عن حياة أبى بكر الأولى ، وصحبته لرسول الله ، نظرا لأهميتها بالنسـبة لعصر رسول الله ، ولترشيحه لتولى الأمر من بعده .

واما قول المؤلف « واليـه – يعنى أبا بكر – ينتسب عشرات الألوف ومئاتها من المسـلمين المنتشرين فى أنحاء العـالم » ، فمن الغريب ان يكون لأبى بكر كل هذا العدد من الذرية فى نحو أربعـة عشر قرنا . وكذلك أن ينسب زيد ابن حارثة مولى رسول الله ومتبناه الى العجم ، مع أنه عربى الأرومـة من بنى كلب . وهرقل حاكم أفريقية غير هرقل الامبراطور المعروف ، وهما عند المؤلف شخص واحد ، والحقيقة أن الأول كان والدا للثانى . والشـائع فى الكتب العربية أن يقال عمرو بن معد يكرب وليس عمرو ابن معدى‌كرب ، وقد يكون المؤلف قد أتى بالاسم على هذه الصورة الأخيرة بعد تحقيق ودراسة منـه .

أسس الخدمة الاجتماعية

تأليف اليزابيث نيكولز ، ترجمة احمد عبد الرحمن حمودة ، الناشر دار المعرفة ، ٢٧٥ ص ١٧ × ٢٤ سم

الثمن ٢٥ قرشا

يبدو من عنوان هـذا الكتاب أنه قد اختص بمجال انسانى هـدفه تقديم العون .. بكافة انواعه .. لكل من يحتاج اليه من ابناء المجتمع تبعا لطبيعة احتياجاته . فمن ابن يقـدم هذا العون ؟ .. قد يتبـادر الى الذهن أن الدولة وحدها هى المورد الأول والأخير لتـأدية هذه الخدمات الاجتماعية .. الا أن الكتاب يبين أن تقديم مثل هذه الأنواع من العون أو الخدمات فى الامكان أن يؤديهـا كل من له صلة فى عمله بالجماهـير .. مثل المعلم والطبيب والواعظ والأخصائى الاجتماعى . ويقتضينا هذا أن ندرك كل نوع على حدة .. فليس بلازم أن يكون عونا ماديا .. اذ قد يتمثل فى مشـاركة وجدانية للوصول الى حل لمشـكلة ، وقد يتمثل فى القيام بمجهودات ايجابيـة لتخطى عقبة ، وقد يكون متمثلا فى مساعدات عينيـة تطمئن النفس وتؤمن العيش .

فكيف نعرف ونتأكد من حقيقة الحال الذى يعانيـه العميل أو صاحب الحاجة ؟ .. كيف نشخص اجتماعيا حال رجل أو امرأة .. كهلا كان أم شـابا .. طفلا كان أم مراهقا ؟ يجيب الكتاب عن كل هذه النواحى .. فيتتبع مراحل

البحث الاجتماعي فى عرض مبسط ، ويبدأ الظروف التى يحتاج الناس فيها الى تقديم العون .. مثل فقدان العائل بالموت أو بالمرض أو بالانفصال الزوجى أو بالهجرة أو بارتكاب الجريمة ، ويتتبع حالات الانحراف والجنون أو ما شابه ذلك من مسلك غير سوى . ثم يفرد الكتاب فصلا لخطوات تقديم العون .. كالتحقق من الموقف الخارجى للعميل أى من الأوساط المحيطة به ، ثم سبر غوره لتتبع نظرته لمشكلته ، وعما اذا كان قد اتخذ أية خطوة كى يساعد نفسه ، وماذا يأمل من محاولته اتخاذ خطوات أخرى فى هذا السبيل ، ثم معرفة نقاط القوة والضعف داخل نفسه كى يتم على هدى ذلك تخطيط العلاج .. ومن ثم يصبح على الباحث أن يدقق الملاحظة فى أقوال صاحب المشكلة ، وطريقة كلامه فى ظروف متنوعة .. حتى لا يكون البحث مشوبا بلحظة التوتر التى يعانيها الشخص موضوع البحث .. ولهذا يقتضى الأمر اجراء مقابلات متعددة بين الطرفين ـ الباحث والقائم بصدده البحث .

ولقد أفرد الكتاب فصلا آخر للكلام عن طرق هذه المقابلات .. منها الفردية المهياة .. أى التى يشعر فيها العميل بالغرض من المقابلة ، ومنها ما يتم فى حضرة ضيوف آخرين غرباء أو أقارب . كما لو كانت مقابلة عارضة .. ولكن بشرط توافر الراحة الذهنية والطمأنينة للعميل فى أسرع وقت ممكن . أما كيف تتوافر هذه الطمأنينة فيرجعها الكتاب الى صفات أساسية لا بد أن يتزود بها الباحث مثل انخفاض الصوت وهدوئه ، ومثل الابطاء فى الكلام .. فعليه ألا يحاول اكمال الجمل التى يجيب بها العميل ، وألا يبدو منه أى أثر للضجر أو نفاذ الصبر .. حتى اذا ما طال وقت المقابلة عن الحد الذى لا يرجى من بعده فائدة .. فعليه أن ينهيها فى ذوق وأدب ، مع تحديد ما سوف يتخذه معه فى مقابلة قادمة وما على العميل أن يحضره معه .. وهكذا يستمر الكتاب فى تفصيل دقائق هذه المقابلات الجانبية والتشخيصية للوصول الى علاج ناجع ، ثم يتتبع نتائجها لدى كافة المستويات المتفاوتة فى الأعمار أو المهن ، أو المختلفة فى درجات الاستجابة الذهنية والاجتماعية .

ويتضح من هذا كله أنه كتاب يلائم المتخصص والقارىء العادى على السواء لبساطة عرضه وحيوية موضوعه .

التعاونية فى الإسلام

تأليف : على محمد على .

الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر (من الشرق والغرب) ١٠٧ صفحة ث ١٥ قرشا

ليس التعاون كما نعرفه الآن وليد الظروف التى نعيشها فحسب ، وانما هو تطور هذا التعاون الذى نراه فى كتاب الله الكريم وفى سنة نبيه وسيرته والحديث المروى عنه . وهذا الكتاب يضفى أضواء جديدة على دراسة الحركة التعاونية العربية مع بيان الصلة المشتركة التى تربطها بالتعاون كما هو موجود فى الاسلام .

وقد اتجه المؤلف فى كتابه الى عقد مقارنات بين مبادىء الاسلام المعروفة وبين مبادىء التعاون المعاصرة ، واستطاع بما لا يدع مجالا للشك أن يبين أن التعاون الحديث لا يختلف عن تلك المبادىء القديمة بل هو تطور لها فى ثوب جديد .

كما لم يغفل المؤلف الحديث عن تاريخ الحركة التعاونية فى أوربا ، منذ الانقلاب الصناعى الذى

جرى فى أخريات القرن الثامن عشر ، وبعد أن تكدست الأموال لدى أصحاب العمل ، فازدادوا غنى ، وازداد العمال فى مصانعهم فقرا .

ويشرح الكتاب أيضا تطور الحركة التعاونية فى الجمهورية العربية المتحدة ، مع مطالع القرن العشرين ، وبعد الجهود الطيبة التى قام بها جماعة من الرواد ، مثل عمر لطفى الذى تتلمذ على رواد التعاون فى ايطاليا . كما تحدث أيضا عن الجهود المستمرة التى قامت بها حكومة الثورة فى هذا الصدد .

السلام العالمى فى العصر الذرى

تأليف : الكسندر هادو وبرتراند رسل ولورد بفردج وهنرى اسبرن .

ترجمة ومراجعة : دكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن وعثمان نويه .

الناشر : دار النشر المتحدة بالاشتراك مع مشروع الألف كتاب — ٢١٧ صفحة . ث ٢١ قرشا

يمر العالم الآن بمرحلة حرجة من تاريخه ، ذلك ان التوتر الدولى الذى يؤدى الى احتمالات حرب ذرية مدمرة يلوح بين حين وآخر ، على الرغم من نشوب حرب عالمية ، فتكت بعشرات الملايين من البشر ، والتى لا يزال من ضحاياها من يعيشون بيننا ، ويعانون من آثارها .

وهذا الكتاب قام بتأليفه أربعة من كبار العلماء فى ميادين الطب والفلسفة والاقتصاد والسياسة ، وقد عرضوا لهذا لموضوع السلام ، وحماية العالم من أخطار حرب ذرية من وجهات نظر متعددة . ولكن هذه الآراء تجتمع كلها فى وسيلتين .

الأولى : وهى العمل على منع انتاج الأسلحة النووية ، والتخلص من المخزون منها ، والاتفاق فى هذا الشأن بين الدول الكبرى من أعضاء النادى الذرى . والوسيلة الأخرى : وهى العمل على انشاء حكومة عالمية ، والارتفاع بها عن مستوى القوميات التى قد تؤدى الى نزعات عدوانية متطرفة .

والحديث عن الوسيلة الأولى ، حديث قديم ، ويكفينا منه أن نذكر المؤتمر العالمى الذى انعقد فى جنيف أكثر من مرة ، من أجل استخدام الذرة فى اغراض السلام ، والبعد بها عن أخطار الحرب . أما الوسيلة الأخرى ، فمع أنها قديمة أيضا الا أنه كثر الحديث عنها فى السنوات الأخيرة ، وكان من جملة من كتبوا فى هذا الموضوع الكاتب الأنسانى الكبير هـ . ج . ويلز فيقول « ان الطريق الوحيد لتنظيم سلم عالمى انما يكون عن طريق هذا الاتحاد الفدرالى ، والطريق الوحيد للوصول الى هذا الاتحاد الفدرالى ماثل بوضوح أمام بصر بنى الانسان » .

ويلوح من الكتاب شىء آخر ، وهو أهمية الدور الذى من المكن أن تقوم به دول الحياد والدول غير المنحازة ، من أجل تخفيف حدة التوتر الدولى ، وكى تقف قوة مانعة لمنع نشوب حرب عالمية ثالثة .

والكتاب به نزعة انسانية مثالية عالية ، تصطدم بالواقع المادى الذى نعيش فيه ، فالظاهر من الكتاب أنه من المكن تجنب الحرب وأن يعيش الانسان فى حالة من الود والتفاهم والسلام ، ونحن نأمل أن يتحقق هذا وعالم تتأرجح فيه قوى الخير وقوى الشر ، الى جانب أن الحرب ظاهرة ذات جذور عميقة ، وتاريخها موغل فى القدم فقد عرفها الناس منذ عرفوا هذه الدنيا . كما أن نفس هذه النزعة المثالية تبدو فى أنه من المكن اقامة حكومة عالمية ، تستطيع أن تحكم العالم بميزان العدل ، وهم يسلمون بانه لن يستطاع القضاء على الروح القومى عند أية أمة من الأمم ، ولكنهم يحاولون التوفيق بين الأمانى القومية والأمانى العالمية ، وترجيح الأخيرة على الأولى بقدر الأمكان .